ذكر ما جرى

ما جرى لأرض الوادى

. . لا يدرى إنسان متى بدأ ذلك ؟ لا يمكن تحديد سنة معينة أو تاريخ محدد . لكن يذكر الكثيرون أن القلق كبر فى النفوس بعد صدور المجموعة الثانية من الصياغات الاجرائية والتى أباحت حق تملك الأراضى بالنسبة للأغراب ، ارتفعت أصوات بالاحتجاج . فى مواجهتها نشر العديد من المقالات فى جميع الصحف على اختلاف اتجاهاتها ، ألقيت محاضرات ، ظهرت رسوم كاريكاتير ، وأفلام قصيرة تعرض فى دور السينما قبل الأفلام الطويلة ، هوجم المشككون ومثيروا الاعتراضات . فى نفس الوقت سارت حركة بيع الأراضى جنبا إلى جنب مع الأمور الأخرى ، وبعد إبادة جميع وثائق هذه السنين ، وإعادة طبع الدوريات والنشرات الصادرة فى الزمن القديم وتحريرها ، وتغييرها بما يتمشى مع الأحداث التى جرت بعد ذلك ، ضاعت كل التفاصيل ، لكن وصلت إلى العديدين دراسة

لا يعرف من كاتبها ؟ قيل أنه شخص لا وجود له ، وأن بعض السكان الأصليين أعدوها بعد طلوعهم إلى الجبل ، وقال آخرون أنها شهادة من الأيام ، ولم تطبع فى كتب ، كل النسخ التى تم تداولها مكتوبة بخطوط يدوية ، بعضها أنيق ، منها المتعثر ، كأنه لأطفال فى الابتدائية ، أو لكبار لم يكملوا تعليمهم ، وجدت محتوياتها منقوشة على الصخور ، وعندما تهدهد الأم طفلها فإنها تذكر له عبارات منها ، وتحكى ما جرى ، ولا يدرى أحد من يدفع إلى ذلك ، ومن يبقى التفاصيل فى أذهان الخلق ، لكن إذا قبل أحد السكان الأصليين الإجابة يقول ، حتى لا ينسى مخلوق ما جرى لأرض الوادى ، وحتى يتجه الجميع الى أرض مصر . .

ملخص لما جاء فى الدراسة المعنونة :

أرض الوادى . . تاريخ وحقائق . .

. . فى البداية بيعت الشقق ، والدكاكين الصغيرة ، وأرصفة الشوارع[1] تناقل الناس الأرقام الضخمة التى دفعت بالعملات الصعبة ،

(١) ظهر بيع الأرصفة فى نهاية العقد الماضى ، عندما قام أحد الأغراب بشراء الرصيف الأيمن للشارع الرئيسى للاسكندرية ومنع الناس من المشى فوقه ، ثم أحاطه بسياج حديدى أزاله بعد فترة ، ثم بدأ يؤجر الرصيف إلى الباعة الجائلين ــ الأغراب أيضا ــ وحدد الايجار على أساس مائة جنيه للبلاطة الواحدة من الرصيف ٢٥ سم × ٢٥ سم .

إمـا كثمن مبـاشـر ، أو كخلو ، بيعت شقق عمـارات بـأكملهـا ، ثم مجموعات مبانى ، ثم رقع مختلفة من الأرض ، إرتفع معدل الاقبال على الشراء بتأثير عوامل عديدة منها :

- الخـطوات التأمينيـة التى اتخذت ، مجمـوعة الأبحـاث التعديليـة والاجراءات المكملة لها .

- رخص ثمن الأراضى فى الـوادى ، وبرغم ارتفـاع الأسعار حتى وصل سعر المتر فى المدينة ، وبالقرب من النهر أكثر من مائة جنيه أجنبى ، فإن هذه الأسعار تعد ضئيلة للغاية إذا قيست بلندن أو باريس ، أو سيدنى باستراليا . .

- السماح بشراء أى مساحة ، وترك الباب مفتوحاً لمن يرغب .

عادة تمضى فترة بين صدور الإجراء وترجمته إلى واقع ، بعد شهور من صدور السماح لبيوت المال بالعمل فى الوادى لاحظ المارة الـراجلون ، وركـاب الأتوبيسـات الصغيرة التى يسمـح لها بـالمرور وسط المـدينـة ، والهاربون من الملل ، والباحثون عن السلوى ولقاء الصدفة فى الطرقات ، أن ثمة حركة تجرى فى المبنى القديم المعروف باسم « برج السبعة طوابق » أقيم حاجز خشبى حوله استغله المعلنون لعرض ملصقات ، بعد أسابيع أزيلت الحواجز ، رفعت السقالات ، ظهر مدخل أنيق ولافتات متحركة

تحتوى على ثلاث لغات ، الإنجليزية والعربية والاسبرانتو ، تعلن عن بيت عالمى متخصص فى العملات الصعبة ، أطلق عليه أهالى الوادى « بيت السبعة طوابق » أصبح أمراً عادياً أن تجد إعلاناً عن بيع شقة ، أو سيارة . وطلب دفع قيمتها بالعملات المعروفة كالاستكالش[1] والروبانز[2] والماكرول بنوعيه[3] ، بيع نوع من الخبز لا يسبب السمنة وغير مضر بمرضى السكر بالعملة ، تندر البعض على الخبز المستطيل ، إسطوانى القوام ، بنى اللون ، هكذا وجد نوعان ، خبز محسن للأغراب ، وعادى ردىء للأهالى ، أقدم البعض على شراء مساحات شاسعة من الصحراء ، لم يقدر أحد خطورة بيعها فى البداية ، تذكر بعض العجائز أراضى واقعة على حدود المدينة بيعت فى أوائل القرن بأسعار بخسة ثم تضاعف سعر المتر المربع منها آلاف المرات ، وضع البعض تحليلات نظرية للبواعث الخفية الكامنة وراء هذا الشراء ، نشر آخرون تحليلات مضادة فى محتواها ، عرفت تلك الفترة بمرحلة التحليلات المتناقضة ، لكن لم يبدر إجراء

(١) الاستكالش : العملة الخاصة باتحاد الدول الرأسمالية ، والاستكالش الواحد يوازى جنيهين من العملة المحلية المنقرضة .

(٢) الروبانز : عملة الدول الوسطى ، قيمته العالية أقل .

(٣) الماكرول : عملة الدول الاشتراكية الموحدة قبل انقسامها ، أصبح هناك نوعان بعد ظهور الخلاف .

عملى ، أو برنامج محدد لانقاذ أرض الوادى ، أشار البعض إلى ما تبطنه الصحارى ، الفوسفات ، الحديد ، الماس ، الفيروز ، الرخام النقى الذى لا مثيل له ، فى نهاية العام الثانى المنقضى على الشراء قام ملاك الصحراء الثانية بإقامة سور عظيم يحيط بالصحراء من جميع الجهات ، سور من الحجارة ، لا يرتفع كثيراً عن الأرض ، بلغ متوسط ارتفاعه مائة وثمانين سنتيمتراً ، تم وضع طبقة أسمنت أعلاه رشقت فيها شظايا زجاج مكسور ومسامير مدببة لمنع تسلقه أو عبوره ، تخللته بوابات ، وأبراج خشبية مزودة بكشافات كهربائية متصلة بمحطة قوى خاصة فى نفس الوقت استمرت حركة بيع الأراضى الممتازة ، بدءاً من المناطق المحيطة بضفتى النهر ، أزال الأغراب المبانى التى عدت يوماً فاخرة ، إختفت العشش والقصور القديمة ، ومراسى المراكب ، وموانىء تفريغ الغلال ، وتخزين الأوانى الفخارية ، ونوادى التجديف والرياضة ، ومجموعة من التماثيل ، بعد فترة ظهرت مبانى جديدة ، غريبة عن الطراز السائد فى البلاد ، مبانى مستطيلة ، حادة كأنها بنيت من المعدن ، بلا نوافذ أو شرفات ، برغم ضخامتها لم يستغرق تشييدها وقتاً طويلاً ، جاءت أوناش ضخمة ، جرارات هائلة ، فى صباح معين يستيقظ الأهالى على اكتمال أحد هذه المبانى ، لم يعرف ماذا يجرى فيها ، قيل أنها تضم حياة كاملة تغنى الأغراب ، عن الاختلاط بأهالى الوادى ، تضم دور سينما ، وحمامات ،

ومطارات صغيرة لكن لم ير أحد طائرات تقلع أو تهبط فوقها ، ذكرت الشائعات أنها تضم أجهزة معينة تطلق أشعة غامضة تمنع السكان الأصليين من التفكير ، سبب هذا هياجاً ووجه بعناية ، نشرت الصحف صور من قالت أنهم مغرضون ومعطلون ، بعد فترة منع أهالى الوادى من التجول فى أحياء كاملة أصبحت ملكاً للأغراب ، غير أن الأمور جرت بأسرع مما يتصور البعض فى الريف ، وتفصيل ذلك كما يلى : أباحت الإجراءات تملك مزارع الفاكهة ، ثم أراضى الخضروات ، ثم أطلقت أيديهم بلا مانع ، وفيما يلى النسب المئوية لما بيع فى السنوات الثلاث الأولى :

ـ المحافظات الشمالية ٧٥ ٪

ـ محافظات الوسط ٥٥ ٪

ـ محافظات الصعيد الأعلى ٢٥ ٪

ـ محافظات الأطراف ٩٠ ٪

لاقت حركة الشراء مقاومة عنيفة خاصة فى الصعيد ، عندما أقدم أحد الأغراب على شراء شبكة الطرق الترابية والمسفلتة ، قام برصفها ثم قرر المرور فوقها مقابل رسم معين قدره قرش صاغ واحد للفرد ولمسافة كيلو متر مئوى ، بشرط إرتداء الإنسان المار لحذاء من نوع خاص ينتجه أحد الملاك

الأغراب ، ومنع مرور الحيوانات فى البداية ، وبعد وساطات عديدة سمح للحمير بالمشى ، فى بداية العام الرابع عرض أحدهم ثمناً ـ أعتبر مرتفعاً وقتئذ ـ مقابل شراء المحافات الساحلية ، قيل أنه سيحول الشواطىء إلى مصايف ومشاتى ، سيقوم باستغلال الثروة السمكية والتى تضمها مساحة عمقها أربعة عشر ميلا بحرياً ، أعلن أنه سيغرق الدنيا بالبلطى والقاروصى والبياض الأصلى ، صرح بأن وجود السكان الأصليين بعوق مشروعاته ، طالب بترحيل عدد كبير منهم إلى المحافظات الداخلية ، بالفعل بدأت إجراءات محددة تهدف إلى ترحيل سكان الأطراف ، وذلك لتخفيف الكثافة السكانية للمساعدة فى خلق مناخ مناسب للاستثمار ، استمرت التحليلات السياسية المتناقضة ، والتى انهمكت فيها جماعات منقسمة ، أصدر كل منها تحليلا ، احتدم النقاش ، هل هو تهجير أم ترحيل ؟ وللأسف استغرق تحديد المعنى اللغوى لهذين اللفظين زمناً جرى فيه ما جرى . فى بداية السنة الرابعة أصبحت محافظات الأطراف مناطق مغلقة تماماً ، ثم بيعت أكبر محافظات الشمال ، بدأ المالك فى رصف عدة طرق ، أقام عدداً هائلاً من المربعات المكانية يضم كل منها حوض سباحة ، وبيتاً صغيراً من الحجارة ، غرس آلاف الأشجار ، فى جميع البلاد ظهرت إعلانات بمختلف اللغات تدعو لزيارة أضخم مجمع لحمامات السباحة فى الدنيا ، باستطاعه أى عاشقين استئجار كوخ وحمام ،

كما توجد مربعات سرية يتعذر الوصول إليها إلا لمن استاجرها ، ومزودة بأجهزة تفسد أى محاولة لتصوير من يقيم بها سواء تم التصوير بآلات عادية من الأرض ، أو بواسطة الأقمار الصناعية الخاصة التى تعمل لحساب بعض المكاتب الفرعية فى أوربا وأمريكا ، أنشأ هذا المالك محطة اذاعة تبث ارسالها على ثلاث موجات متوسطة وقصيرة ، موسيقاها تختلف طبقاً لموقع الساعة من النهار ، راح يذيع نشرة أخبار خاصة تتضمن اعلاناً بوصول بعض السائحين الراغبين فى اذاعة اسمائهم مقابل اضافة بسيطة إلى إجور الإقامة تختلف حسب عدد كلمات الخبر وموقعه من النشرة ، كما أذاع أخبار الطقس داخل المحافظة ، ودرجة حرارة المياه فى أحواض السباحة ، واتخذ علماً بلون السماء يتوسطه حوض سباحة ملىء بالمياه وحسناء تدلى ساقيها فيها ، واعتبرت تلك الإجراءات بداية لأخطر التطورات ويعد هذا المالك شديد الخبث ، إذ صرح فى أكثر من مناسبة أنه لن يطالب بتهجير السكان لكنه فى الواقع أرغم الآلاف على ترك بيوتهم ، استبقى الفتيات الجميلات للخدمة فى الموتيلات والشاليهات ، أرغم الأهالى على حفر قبور أجدادهم وحمل عظام موتاهم ، ردم قنوات الرى ، الترع الرئيسية ، الجسور الخشبية ، نسف ساعات العصارى ، اجتث ظلال أشجار التوت والجميز ، أحرق حديد السواقى ، أباد أبراج الحمام ، أطلقت صحف المجموعة الرأسمالية الأولى على المحافظة ، « مأوى عشاق العالم » ، ذكر

أحد الصحفيين أنه يمكن للعاشق ركوب طائرة خاصة مع حبيبته فى الصباح ليقضيا يوماً والعودة قبل المساء إلى أى مكان أقلعا منه فى أوربا ، أنشأ إدارة الصحة وتختص بفواتح الشهية الجنسية ، ضمت فرعاً للبحوث العلمية من أجل استحداث وسائل زيادة المتعة ، كما طبق أضخم نظام للتكييف فى العالم ، عندما استخدم طرقا مستحدثة لتوليد غاز الفريون فى الهواء مباشرة ، وصرح المشرفون بأنه سيتم الاستغناء عن الوسائل الصناعية بعد أربع سنوات من التكييف المتصل لأن مناخ المحافظة سيتغير جذرياً ، ثم قام هذا المالك بشراء جميع أماكن العشاق فى الوادى ، الأركان الظليلة ، والحدائق النائية ، والشوارع خافتة الضوء والشواطىء الهادئة المحاذية للنيل ، وضاق الأمر بالمحبين من أهل الوادى ، وعزت العواطف جداً ، وطوردت الأشواق ، وحرم على الشاب أن يمسك بيد فتاته إلا فى الأماكن التى اشتراها المالك حيث يصعب دفع تكاليفها ، وطالبت إحدى الصحف وقتئذ بإتاحة الفرصة أمام الحب المحلى ، لكن لم يصغ أحد إلى ذلك ، وسار الحال على ما هو عليه ، بعد شهور بيعت المحافظات الرابعة ، والسادسة والسابعة التى تضم ضريح أكبر الأولياء فى البلاد وحاميها وراعيها وقبلة المظلومين ، أقام الأهالى ضريحاً بديلاً فى الأماكن النائية ، نشرت صور توقيع الاتفاقات حيث يجلس الغريب مبتسماً بينما ينحنى أحد الموظفين يطلب سمحات الأنسان ، أدلى مالك المحافظة الرابعة بتصريح

نصه كالآتي :

« يسعدنى أن أعلن نيتى فى إنشاء أضخم الغابات المتخصصة فى زراعة المانجو ، سننتج أنواعاً خالية من القشر أو النوى » .

ثنى المزارعون القدامى أصابعهم النحيلة ، قطبوا عيونهم محاولين تصور الربح الضخم الذى سيعود على مالك محافظة المانجو بالقياس إلى إيراد الفدان الواحد فى الزمن الماضى ، مهما أرهقوا عقولهم فلن يصلوا إلى الرقم الحقيقى ، لأنهم يحسبون بالعملة المحلية المنقرضة ، ومن الصعب عليهم تصور الأنواع المختلفة التى سطرحها الأراضى فى عهدها الجديد لأن الانتاج كله سيخصص للتصدير ورداً على سؤال وجه إلى المالك الغريب قال أنه لن يحرم أهالى البلاد بالطبع ، فهم منه أن الأنواع التى ستطرح من ثمار أصابها التلف ، أو شذت أحجامها عن الثمار المخصصة للتصدير ، والتى ألصق على كل منها ورقة مستديرة تحمل اسم المالك باللغات الحية ، فى منتصف العام الخامس قام أحد الملاك الأغراب بشراء أراضى محافظتين كاملتين ، لم يفصح عن نواياه ، قيل أنه شخص ثرى جداً ، يمتلك طائرات وسفناً لانتقالاته وغواصة جدرانها من زجاج يقضى فيها بعض أوقاته تحت سطح المحيط يتسلى بمشاهدة غرائب البحر ، قيل أنه يهوى شراء الأراضى فقط ورفع اسمه عليها ، والمجىء كل سنة يوماً أو يومين ، يمشى ، فى كل لحظة يردد بصوت عال ، هذه أرضى أنا ، وأن

حلمه الأكبر شراء الكرة الأرضية وطرد الجنس البشرى منها إلى الفضاء الخارجى ، وهو أعـزب ، لا ابن له ، والعجيب أنـه صك عملة محليـة خاصة ليتداولها العدد القليل المتبقى لأغراض الحراسة ، وتردد أنه عرض شراء شعب القارة الهندية ، ولم يعرف حقيقة ذلك ، ومن أغرب الملاك الذين عرفتهم البلاد مشترى دورات المياه العامة ، إذ أعلن فى نهاية العقد الرابع أن جميع دورات المياه العامة المنتشرة فى الميادين ، ودور السينما ، والمساجد ، وأبنية المحاكم ، أصبحت ملكاً لشخص أعلن عن اهتمامه بإعادة بنائها ، وتنظيفها المستمر ، وتوفير سبل الراحة فيهـا ، وقيل أنـه تعرض يوماً لمتاعب هضمية أثناء سيره وافتقد دورة مياه مما سبب له حرجاً بالغاً ، مما جعله ينذر على نفسه ضرورة شراء جميـع مراحيض العـالم ، وبالطبع جعل الدخول إليها مقابل رسم معين لا يقدر على دفعه إلا فقراء الأغراب ، وضاقت الحال بفقراء الوادى جداً ، ثم قام أحد المستثمرين بشراء المصارف والترع ، والقناطر ، والأهوسة ، قرر تطوير نظم الرى ، والحقيقة أنه وجه المياه لخدمة أراضى الأغراب بالدرجة الأولى ، أعقب ذلك الدعوة إلى مزاد علنى لبيع النيل ، حـدد تاريـخ الجلسة بعـد حملة إعلانية هائلة ، حدد مبلغاً معيناً يدفع كتأمين ، وبهذه المناسبة الفريـدة ظهرت كتب عن النهر ، ومسلسلات إذاعية ، وأخرى تليفزيونية ، تحكى تاريخه ، وفوائده ومنافعه ، والحضارات التى نشأت على ضفتيه ، وتحليل

لمياهه ، وأهميته الإستراتيجية ، وأعيد طبع كتاب إميل لودفيج ، وكتاب الدكتور محمد عوض محمد ، كما ظهرت طبعات أخرى من « النيل فى المكتبة العربية » ، و« النيل عبر العصور » وغيرها ، كما عرض فيلم تسجيلى أعده منذ سنوات طويلة مخرج كندى اسمه « جون فينى » واستخدم كمادة للدعاية ، بعد الإعلان عن بيع النهر وقعت أحداث يطول شرحها ، لكن فى النهاية أن المزاد لم يستغرق أكثر من نصف ساعة . رسا فى النهاية على نفس المستثمر الذى اشترى شبكة الترع والقنوات الزراعية مما دعا البعض إلى الظن بأن ثمة ملعوباً جرى ، وأن البعض تقاضى عمولات طائلة ، والمزاد لذر الرماد فى العيون ، بعد بيع النهر بإسبوع تم تشكيل « إتحاد ملاك مصر »[1] ويعتبر المؤرخون العلميون أن المزاد هو

---

(١) قال المبررون انه لا يجب اطلاق لفظ الأغراب على الملاك الجدد ، لأنهم محبين للبلاد ودليل ذلك ما أحضروه من أموال بغية الاستثمار ، كما أنهم سيصبحون بعد فترة مصريين أكثر من الذين عاشوا آلاف السنين على ضفتى النيل ، تلك خاصية مصر التى تستوعب كل القادمين إليها تذيبهم فيها ، كما أعدت دراسة عن خصائص الامتصاص فى الوادى ، وكيف ستوجد لديهم روح المواطنة ، وقالوا أن أرض الوادى أكثر ملكت أكثر من مرة إلى أشخاص ، تحدثوا عن الفرعون والكهنة ، والرومان ، والفرس ، وركزوا على العصر المملوكى عندما قسم السلاطين مصر إلى أربعة وعشرين قيراطا توزع عليهم وعلى الأمراء والأجناد ، وعندما تولى محمد على باشا الحكم استولى على الأرض كلها ، وزعها على رجاله ، وللأسف لم يتبق نص واحد من الردود التى ظهرت على هذه التبريرات .

الحد الفاصل بين حقبتين ، وليس كما ادعى البعض أنه اليوم الذى وقف فيه ممثلو اتحاد الملاك أمام المجلس الأعلى لهيئة الأمم مطالباً بإخلاء السكان الأصليين . .

« نظراً لأهمية الجلسة التاريخية ، وما ترتب عليها ، نورد تفصيلا لبعض مما جرى فيها »

فى تمام الساعة العاشرة سمح بدخول المراسلين الأجانب إلى القاعدة ، جلسوا فى الشرفة الدائرية بالمكان ، نزل إلى القاعة مصور واحد من كل صحيفة ، أجرى تفتيش ذاتى عليهم ، إلى اليمين خصصت شرفة لكبار المدعوين ومعظمهم أغراب ، إلى اليسار ، علقت خريطة ضخمة مجسمة للنهر ، بدا بمجراه النحيل وفرعيه كصورة بالأشعة لهيكل عظمى ، علقت صور فوتوغرافية كبيرة الحجم تمثل مناظر مختلفة على ضفتى النهر ، فى مواجهة شرفة الصحفيين علقت لافتات كتبت بلغات عدة .

سطور من اللافتة لأولى :

ـ عرف النيل فى فجر التاريخ باسم « حابى » . ظل يعبد حتى آخر عصور الوثنية ، كثيراً ما أطلق عليه المصريون القدماء اسم « يارعو » أى النهر العظيم .

ـ تطلق التوراة على النيل اسم « بى أور » .

ـ فى الأوديسة يطلق على اليل اسم « إيجبتوس » .

ـ عبر القرآن الكريم عن النيل باليم فقال . . « فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى » .

سطور من اللافتة الثانية :

ـ مساحة حوض النيل من المنبع إلى المصب ٧١٨ ، ٢٠٨٦٧ كيلو متراً ، أى ٢٢٧ ، ٢٠٧ ، ١ ميلا .

ثم معلومات أخرى عن الوادى ، ومنابع النهر ، ومجراه ، وروافده ، والسدود المقامة عليه ، وحوت اللافتة الثالثة عبارة واحدة : « من يشرب ماء النيل لا بد أن يعود إليه ثانية » . وعدت اللافتة دعاية سياحية ، دخل المزايدون ، وقفوا حول دائرة مسورة داخلها مكتب صغير مرتفع القوائم وقف خلفه المثمن العالمى ، خبير أنهار معروف ، فى الأركان أربع منصات رئيسية فوق كل منها كاميرا تليفزيونية ، بخلاف آلات التصوير السينمائى ، ألقى المثمن كلمة عن خواص النيل ، مزاياه ، موقعه بين أنهار الدنيا ، وعندما أفاض وصف المذيع ما يجرى . .

سيداتى ، سادتى ، نشهد فى هذه اللحظات التاريخية ، الرائعة بداية الحدث الكبير . . .

قال المثمن ان البيع سيشمل مياه النهر الجارية من الوادى حتى المصب ، وسيبيع المالك المياه إلى جميع المحافظات والأقسام ، من حقه تحديد الثمن والكميات .

وجه مراسل صحيفة ستاكوزا نيوز سؤالا عن الثروة السمكية ؟

قال المثمن ان الأسماك فى باطن النهر تتبع المالك ، كذلك النباتات والأعشاب التى تنمو على جانبيه بعمق متر واحد ، ومن حقه مصادرة ومنع المراكب الشراعية والقوارب التى تسبح فوقه ومنع السكان الأصليين من

الصيد ، والنزهة .

سؤال من مندوب إذاعة كولونيا عن القناطر والسدود :

أعلن المثمن أن كل حجر مقام فوق النهر يتبع المالك الجديد .

محرر الشئون العلمية بمجلة ياتا العلمية المتخصصة يسأل عن الجزر الواقعة داخل النيل ؟

قال المثمن ان جميع الأراضى الواقعة بين الضفتين من نصيب مالك النهر ، وأى زيادة فى المجرى تتبع المالك ، أى جزر جديدة ستظهر ستصبح ملكاً له ، له الحق فى حماية نهره بكافة الوسائل ويضم إليه كافة المنشآت الواقعة فى حدود عمق متر واحد يمتد بطول الضفتين ، أى أن الكورنيش الذى يربط الوادى من أقصاه إلى أدناه سيتبعه أيضاً .

سؤال مراسل وكالة رويتر عن المشروعات التى قد يحدث اعتراض على إقامتها ؟ :

ضحك المثمن العجوز تساءل عن نوعية المعترض ، للمالك مطلق الحرية فى التصرف كما يهوى .

بدأ بيع النهر ، أعلن المثمن رقماً مبدئياً ، ساد القاعة سكون ، وقع صمت ثقيل فى سائر أنحاء الوادى ، التف الناس حول السماعات

الاليكترونية ، يقول المعمرون أن ريحاً ساخنة هبت محملة بتراب ناعم أحمر اللون أحالت السماء إلى ما يشبه الحريق ، سمع لها صوت كالعويل ، ضج لناس وسقط بعضهم لحظة زعيق المثمن . .

« أكبر أنهار الدنيا ، من يشترى ؟ » . .

سمع السكان الأصليون صوتاً يصيح بالانجليزية ، بعده صاح المثمن . .

« فرصة تاريخية ، من يريد ، نهر أنشأ حضارات متوالية ، هو الحياة نفسها » .

زعق صوت آخر ، انفعل صوت المذيع :

« أنظروا يا أهالى الوادى إلى قيمة نهركم » . .

تردد صوت باللغة المحلية ، ذكر رقماً ، سمع بعد حوالى ثلاث دقائق ، رآه مشاهدو التليفزيون ، رصدوا ملامحه ، إنه الوحيد من السكان الأصليين الذى يحضر المزاد ، تساءل الكثيرون عن شخصيته ، من هو ؟ كيف وصل إلى المزاد ؟ من أين له بالمال ؟ ، بعد نطقه مباشرة سمع صوت واثق يذكر رقماً فاق كل ما قيل . .

ألاؤنا . . ألا دووى . . . ألا ترى . . .

يـزعق المذيـع بينما تهـوى المطرقـة الصغيـرة عـاجيـة المقبض فـوق المنضدة . .

« إنها لحظات تاريخية لم يسبق لها مثيل » . .

لمعت آلات التصوير ، ابتسم مالك النهر للصحفيين ، غادر سكرتير مؤسسة العملة الصعبة[1] مقصورته صافح المـالك ، عـانقه ، فى نفس اللحظة فشا فى الـوادى حزن ، أصبـح الناس فى هيـاج عظيم ، وزعـم البعض أن المـ تى ضجوا فى قبورهـم ، سمعت أناتهم فى الليـل ، ارتفع مستوى النيل بما فاض فيه من دموع ، قيل لن يسمح لأحد برؤ يته إلا بتصريح خاص ، مياهه ستعبأ فى زجاجات وتصدر ، ولن يلجأ إلى شاطئه المهـومون والمكـروبون والهـاربـون من الضنى والضيق ، عـلى السكـان الأصليين البحث عن مصادر مياه أخرى لإرواء ظمأهم وقضاء حاجاتهم ، تحدثت صحف المساء عن الحدث الكبير ، حـذرت من المبلبلين وقصار النظر ، فى المساء غطى الوادى ألم ، فاض صمت . .

(١) لمعرفة دور هذه المؤسسة ومسؤ وليتها لما جرى للوادى ، راجع « تاريخ العملة الصعبة فى مصر » .

« نص المذكرة المرفوعة من اتحاد ملاك مصر إلى المجلس الأعلى لهيئة الأمم »

. . نحن اتحاد ملاك مصر ، نرفع دعوى إخلاء ضد سكان الوادى وذلك لما يلى :

. . منذ فترة طويلة انتقلت ملكية عموم أراضى الوادى إلى الموقعين أدناه ، أصبح ملكاً لهم بدون استثناء شبر واحد ، على الفور بدأنا تنفيذ العديد من المشروعات التى تبهج الانسانية ، لكن ظهرت متاعب تعوق ما نمضى فيه ، كتكاثر السكان بسرعة مما يشكل عبئاً على الحاصلات المحلية طاقات التصدير ، رفض السكان تنفيذ أية مقترحات للحد من تناسلهم مما اضطر مالك المحافظة السابعة إلى اتخاذ قراره الخاص بتعقيم كل رجل يبقى فى المحافظة ، قوبل هذا باستخفاف ، وعمليات تخريب متعمدة ، كما أصبح الأمر صعباً فى محافظة أحواض السباحة العالمية حيث نظمت أعمال عدوانية ، كمحاولة التلصص على المستحمين ، وسرقة بقايا الأطعمة ، وترويج كتب مضادة ، والتهديد بعمليات إجرامية ، اعترف أحدهم بمؤامرة لتسميم مياه النيل ، أمكن ضبط المواد التى سيتم استخدامها ، لدينا صور هذا المخطط الاجرامى سنعرضها على حضراتكم عقب انتهاء عرض الدعوى ، كيف يقوم السلام إذن بين الملاك

والسكان ؟ ورداً على بعض الحجج القائلة ان مالك النهر قد منع الماء عن السكان الأصليين نرد بأن النهر يعتبر ملكاً خالصاً له ، دفع ثمنه بالعملة الصعبة « الاستكالش » . شيك رقم ٨٩٨٣٨٥٢ ، مسحوب على بنك انترناسيونال كورياتيف أوف بنك ليمتد ــ فرع باريس ، لقد تم تهذيب الضفتين ، وتعبئة مياه النيل فى زجاجات بلاستيك عبوة واحد لتر وتصديرها إلى جميع أنحاء العالم بأسعار رمزية بالقياس إلى تكاليف الانتاج ، وبعد اكتشاف الخواص الصحية الفريدة لمياه النيل ، لم يستطع هؤلاء السكان اكتشافها عبر آلاف السنين وإفادة العالم منها ، برغم ذلك استجاب سيادته للنداء الانسانى الذى وجهته الدول الكبرى ، قرر منح السكان كمية من مياه الشرب لمدة عام واحد اعتباراً من الشهر الماضى[1] ،

(١) من الضرورى ايضاح ذلك ، بعد أن قطع مالك النهر المياه عن سكان الوادى ، انتشر المرض ، مات ألف ألف ، وفشلت كل الجهود لايجاد مصادر بديلة ، مما دعى مجموعة الدول الاشتراكية الأولى إلى المأساة أمام المجلس الأعلى لهيئة الأمم ، لكن مجموعة الدول الاشتراكية الثانية هددت باستخدام فيتو ضد مناقشة الموضوع ، ولا يعنى هذا اتخاذ موقف معاد للسكان الأصليين ، انما يرجع هذا إلى الخلاف العقائدى الذيم الذى قسم المعسكر الاشتراكى إلى فريقين متناوئين : (يتخذ كل منهما مواقفه فى ضوء هذا الخلاف بغض النظر عن أية اعتبارات أخرى) أثناء المناقشة وصلت رسالة من مالك النهر يعلن استجابته لنداء الانسانية ، وانتهز ليعلن من فوق المنبر العالى عن مشروعاته التى أنجزها ، أذاع أسعار زجاجات الشرب ، والمبيت فى الفنادق العائمة ودعا كافة الأعضاء لزيارة النهر ، وفيما بعد أعلن مندوب كذبه مندوبو أربعة عشر دولة ، قالوا ان مخابرات بلادهم لديها معلومات مختلفة .

وحتى تدبير مصادر أخرى لمياه الشرب والاستحمام ، ومع أن ضياع نقطة واحدة ينقص العائد عليه ، ولا يخفى أن ازدحام السكان فى مناطق محدودة(1) يتيح الفرصة لتكاثر الأوبئة مما يهدد الصحة العالمية ، ويهدد مشروعاتنا ، لهذا أصبح ضرورياً اخلاء هذه الأعداد الضخمة وترحيلهم إلى مناطق أخرى من العالم تحتاج إلى طاقاتهم وتستوعب أعدادهم ، ومما يدعم مطلبنا تلك الاكتشافات العلمية الحديثة ، حيث اتضح عمق الأصول التاريخية لملاك مصر ، حاول بعض سكان الوادى نشر دعايات تقول ان الملاك أغراب عن الوادى ، بغض النظر عن حق الملكية المقدس ، نعلن من هنا ملخص تلك الاكتشافات التى تثبت أن ملاك مصر أقدم من هؤلاء الذين يطلق عليهم البعض « السكان الأصليين » . لم يكن الأمر من قبيل الصدفة عندما قام كل مالك بهجرة البلد التى ولد فيها وجاء إلى مصر يشترى أرضاً ، أو يستثمر مالا ، أو ينشىء مشروعاً ، سعى كل منهم إلى استرداد موطن أجداده ، تلك حقيقة يجب أن يعيها العالم جيداً ، أن أكبر مالك فى الوادى ، صاحب النيل ، و الترع ، والمصارف ، والقناطر والسدود ، تنتمى أصوله البعيدة إلى أحد أفراد الأسرة الرابعة فى الدولة القديمة التى عاشت على ضفتى الوادى منذ ستة آلاف سنة ، جده فى

(1) بعد تشكيل اتحاد ملاك مصر ، وبدء عمليات الاخلاء الواسعة من المناطق المباعة ، حددت اقامة السكان فى مناطق معينة ، لا ينتقلون خارجها إلا بتصاريح خاصة .

هذا الزمن النائى عنخ ـ مت رئيس الديوان ، والمشرف على شئون الرى فى الوادى ، إليكم صورة من اللوحة التى عثرت عليها البعثة الأثرية برئاسة مترى ماد المصرولجى الكبير ، والتى قامت بعمليات بحث وتنقيب استمرت عامين كاملين فى منطقة الأهرامات المعروفة بعد انتقال ملكيتها إلى صاحب المحافظة الثانية ، تضم اللوحة أسماء أسرة عنخ ـ مت ، التى تولت رئاسة الديوان والاشراف على الرى حتى العصر الاغريقى ، ومع اضمحلال الحضارة الفرعونية ، هاجر جزء من العائلة إلى فينيقية ، ثم إلى بلاد عديدة آخرها التى قدم منها مالك النيل الحالى ، ويحتفظ سعادته بعدد كبير من لغات البردى المتوارثة جيلاً بعد جيل ، تلخص هدف أسرته النبيل ، استرداد المجد القديم ، وتوجد وثائق أخرى هامة سنعرضها على لجنة تقصى الحقائق التى ينوى مجلسكم الأعلى إرسالها ، وبغض النظر عن القيمة القانونية لهذه الوثائق العلمية ، فلا شك أنها سوف تحدث انقلاباً كبيراً فى علم التاريخ ، وستغير كثيرا من المعلومات الخاطئة التى سادت كتب التاريخ حتى الآن[1] .

(١) قدم مندوب الاتحاد عدة صور للوحة أثرية ، يتوسطها رسم عبارة عن خرطوشة مستطيلة ، داخلها حروف هيروغليفية ، على جانبيها وقف شخصان بالوضع المعروف فى الرسومات المصرية القديمة ، حيث الجسم بالمواجهة ، أما الرأس فيتخذ الوضع الجانبى ، كل منهما يمد يديه ليلمس الخرطوشة ، تبدو على قدمى الرجل الواقف إلى اليسار آثار ألوان حمراء باهتة من الواضح أنها تأثرت بفعل الزمن .

لجميع الأسباب المتقدم ذكرها ، نطالب نحن ملاك مصر بإخلاء ما يسمى بالسكان الأصليين ، حتى يعود الحق إلى أصحابه .

« وقائع تلك ذلك »

بعد مداولات ، ومناقشات انفعل خلالها أحد الأعضاء ودق بيده على المنضدة، ألقى سماعات الترجمة الفورية غضباً ، أصدر المجلس قراراً بإخلاء السكان الأصليين من الوادى كله . ويتم نقلهم إلى أماكن نائية من العالم ، على ألا يزيد عدد المنقول منهم إلى مكان واحد عن عدد معين ، وأن يتحمل الأعضاء التكاليف ، استند المجلس إلى وثائق عدة ، منها تقرير قدمته مخابرات الدول الرأسمالية الأولى ، عرف باسم « تقرير الاخلاء » ، وإلى الحجج الصياغية البليغة التى وضعها اتحاد ملاك مصر ، بعد صدور القرار خرج مندوبو المجموعة الاشتراكية الثانية احتجاجاً ، على الرغم من معارضتهم المجموعة الاشتراكية الأولى فى الجلسات السابقة ، فى هذه المرة بقى ممثلو المجموعة الأولى ــ تطبيقاً لتقاليد الخلاف العقائدى ــ مما عد ذلك موافقة منهم على القرار ، فى نفس اليوم اتخذت إجراءات تنفيذية أولها تشكيل لجنة يرأسها وزير خارجية إحدى الدول الكبرى المحايدة باعتباره « محضراً » دولياً ، ومهمة اللجنة جرد السكان تمهيداً لنقل ما يستحق ، ضمت إلى جانبها لجنة فرعية لأعمال السكرتارية ، وهيئة فنية خاصة تضم

ممثلين وخبراء فى شؤون السكان ، والصحة ، والنقل ، بعد أسبوعين باشرت هذه اللجنة عملها فى الوادى ، وخلال إقامتها استنفرت جميع أجهزة الأمن الخاصة التى أنشأها كل مالك فى قسمه ، وبعد شهر تخللته مقابلات وحركة ، ومعاينة ، أعد محضر رفع إلى المجلس الأعلى .

« محضر جرد مصر »

« فيما يلى بيان تفصيلى بما وجدناه :

عـــدد الصنـــف

٠٠٠٠ , ٧٠ مليون شعب الوادى ، يشمل هذا الرقم الرجال والنساء والأطفال ، منهم ٤٠ مليون أنثى (١٥ مليون عذراء ، و ١٥ مليون امرأة ، وخمسة ملايين تجاوزن سن اليأس) و ٣٠ مليون ذكر (١٥ مليون يصلحون لأداء جميع الأعمال الشاقة ، كالقتال والحرب ، والعمل ، فى المناجم ، وقطع الحجارة من الجبال ، إلى جانب الأعمال الذهنية العنيفة ، قاموا بأعمال تخريبية واسعة ، قتل منهم عدد كبير ، و ١٥ مليون طفل وفتى) .

الأرقام التالية لا تضاف إلى الرقم الإجمالى لتعداد شعب الوادى .

لكنها توضح أهم الفئات وعددها :

عـــــدد	الصنـــف

مليـون مهندس ، طبيب ، محـاسب وبـاحث فى مختلف المجـالات العلمية ، أضطر هؤلاء إلى ممارسة أعمال لا علاقة لها بمهنهم الأصلية بعد مجىء أعداد كبيرة من حملة نفس التخصصات مع ملاك مصر .

سبعون ألف من حفظة الشعـر ، والمواويـل ، وباعثى الآهـات ، وخالقى التنهدات ، معظمهم أنشد شعراً بعد بيع النيل ، أشهرهم عازف ربابة ضرير يرتدى الجلباب ، صوته قوى ، إذا وقف عند طرف الوادى فى المساء يسمع طرفه الآخر ، سمعنا أنه ينشد مـواويل تتضمن سـائر من حكموا مصر ، والولاة وكراماتهم ، والقديسين ، كلهم أزيلت مدافنهم فى السنوات الأخيرة .

بضعة آلاف كتاب مسرح ، رواة ومفكرين .

آلاف نساك ، ودراويش زاهدون ، وبحارة ، ونوتية ، وقباطنة .

آلاف صياغ فضة ، ونقاشون ، بناة عمائر ودباغو جلود ومنمنمون وخراطون ، إخصائيون فى تربية زهور البنفسج وتنسيق الحـدائق وتنمية الياسمين وزراعة الصفصاف والكافور والجميز .

والزيتون ، وتعريشات الكروم وتلقيح النخيل وتخضير الطين بضعة آلاف خيامية ، سروجية ، صدفجية ، بناة منائر وقباب ومساجد ، صناع أهلة معدنية وشموس بيارق وأجراس كنائس ، محاريب صلاة ، مصمموا نجف ، نساج صوف وحرير طبيعى وموسلين . .

ومئات مئات يتقنون صهر الصلب وإذابة الحديد وتشكيل المعادن . وشق القنوات ، مد الكبارى ، حفر الأنفاق ، فلق جذوع النخيل ، الملاحة الجوية ، تطهير الأرض من الآفات ، التنبؤ بما ستصير إليه الأحوال ، الغوص فى مناجم الفحم ومجاهل الفوسفات وسائقو قطارات وبصاصون وكتبة تقارير .

هذا ما يشمل بنى الإنسان ، وإذا انتقلنا إلى جرد المبانى والممتلكات ، وجدنا أعداداً لا حصر لها من البيوت على إختلاف أنواعها ، بيوت متعددة الطوابق ، قصور قديمة ، حدائق ، آلاف المنازل المبنية من الطين ، أضرحة للأولياء والصالحين ، معابد للفقراء ، تكايا ، أهرامات ، معابد أثرية من عصور جاهلية ، وفرعونية ، واغريقية ، ورومانية ، وقبطية ، ولوحات ، ومومياءات وملابس من آلاف السنين كأنها نسجت بالأمس ، ومغارات فى بطن الجبل منقوشة الجدران ، ملايين من جذوع النخيل مشقوقة ، مستخدمة كجسور فوق ترع بعيدة ، أو أعمدة تسند السقوف ، ومقاعد ، وأثاث ، وأسوار ، توجد أفران ، وقوارب ، وصنادل بحرية

ومراسى ، ومؤلفات أدبية ، أشعار من مختلف العصور والأوزان والبحور ، كميات لا حصر لها من الفلكلور والتراث والمعتقدات ، ألحان ، وأغان شعبية ، وعدد لا حصر له من الحيوانات المستأنسة استخدمت فى الزراعة خلال السنوات التى قام فيها السكان بزراعة الأرض ، كالأبقار والجواميس ، والحمير ، والجمال ، والكلاب ، والقطط ، وفى المناطق النائية العديد من الأنواع الوحشية والتى يجرى إبادتها من قبل إتحاد الملاك . .

هذا ما اطلعنا عليه ، ووجب إثباته ، قبل نقل السكان وبدء عمليات الإخلاء . .

(لجنة جرد مصر)

بعض من أحداث وقعت بأرض الوادى

. . يمكن القول أن ردود فعل السكان الأصليين اختلفت كثيراً بعد بيع النيل ، اعتبرت ذكرى المزاد مناحة ، انطلقت نار فى نفوس الفلاحين بعد طردهم إلى أطراف الوادى ، أهاجهم الحزن على النهر ، الترع ، المصارف ، بذر الحب ، نمو الزرع ، مشى العصارى فوق الجسور ، رائحة الخبيز وقت الظهيرة ، نداءات الطيور والضفادع ، فرحة مجىء الأعياد ، الطلوع لزيارة المقابر ، نكت التراب بالعصى عند جلوس

القرفصاء ، شد الشواديف ، صرير السواقى ، اهتزاز سعف النخيل[1] ، صفير ماكينات الطحين المتقطع ، رائحة التين عند منحنيات الطرق ، أنشد الأميون شعراً يسيل الدمع من العيون ، دعا البعض إلى سد النهر بأجسادهم ، تساءلوا : هل هل سيوفى النيل كعادته كل عام بعد أن بيع ؟ عظم الجوع ، صار الأب يحاول بيع ابنه مقابل كيس طحين ولا من مشترى ، قوبل بيع النهر بمقاومة سلمية وأخرى عنيفة ، نظم شباب الوادى حملة لجمع مبلغ ضخم يمكنهم من دخول المزاد وإبقاء النهر ملكاً لهم ، حوى ذلك هدفاً أبعد ، لو احتفظوا بالنيل أمكنهم التحكم فى ممتلكات الأغراب ، وعلى الرغم من انشغال الجماعات السياسية فى خلافاتها ، ومحاولة كل منها لتحديد المفاهيم ، غير أن كافة الخلق (باستثناء السماسرة والبورصجية ، والذين تجنسوا بجنسيات غريبة ليستثمروا أموالهم منذ قصر حق أقامة المشروعات على الأغراب) اشتركوا فى حملة إنقاذ النيل ، كل الناس ، المثقفون ، العلماء ، الطيبون ، الجالسون أمام الأبواب يقاسون عناء الغد ، الواقعون تحت البراميل والبالات وسائر أنواع الحمولات ، الذين إسود لونهم من تعاقب البرد والحر على أجسادهم العارية ، الذين جروا المراكب بأيديهم ، من رصوا الطوبة فوق الطوبة

(١) بعد بيع الوادى تم استئصال جميع أشجار النخيل والدوم وقلعها من جذورها ، ولم يعرف سببا لذلك .

ليـرتفع جـدار ، من اعتلوا السقالات ، من عـزقوا الأرض بـالعرق ، تفاوتت قيمة المبالغ المدفوعة ، من قروش معدودة إلى مليون دولار أرسلها بعض الأبناء المغتربين من السكان الأصليـين ، تقدم أحـد الشبان يـوم المزاد ، دفع التأمين المطلوب ، لم يعرف حتى الآن كيف توفر لديه هـذا المبلغ الضخم من العملة الصعبة ؟ لا زال الأمر سـراً يحير إتحـاد الملاك الأغراب ، حتى الآن يدور البحث عن هذا الشاب الذى تكلم باللغـة المحلية فى قلب جلسة المزاد ، يقولـون انه ذكى جـداً ، يتحدث ثمـانى لغات ، المعلومات التى أدلى بها عن نفسه غير حقيقة ، كافة الوثائق التى أعدت له قام بطبعها مزور عظيم من السكان الأصليين ، تردد صوته ثلاث مرات ، الأولى بعد استطلاعه لمستوى المبالغ المدفوعة ، الثانية عندما زاد زيادة طفيفة ، بعد أربعة عشرة دقيقة من بدء المزاد ، أعقبه المالك الحالى للنهر ، المرة الأخيرة بعد ستة عشرة دقيقة من بدء المزاد عندما زاد رقماً يعتقد المحللون أنه آخر ما لديـه ، إنسحب واختفى ، منع من الخـروج فمن تعليمات المزاد عدم مغادرة القاعة إلا بعد انتهائه تماماً ، لم تذكره صحف المساء أو الصباح بكلمة ، إدعت كل من الجامعات السياسية المتناظرة أنه ينتمى إليها ، حذفت كلماته من مضبطة الجلسة ، من الوصف التسجيلى أيضاً ، ترددت أقاويل كثيرة عن طلوعه إلى الجبـل ليقود رجـالا أشداء لا يقهرون أبداً سيستردون النيل عنوة ، لم يدر أحد كيف سيتم التصرف فى

المبالغ المجموعة وأثار هذا قلقاً لدى اتحاد ملاك مصر ، تبع ذلك أعمال عنف غامضة ، ظهرت فرق الصدام التى ضمت رجالاً ونساء اقتنعوا بعدم جدوى حياتهم بعد بيع النيل وموت أسرهم ظمأ ، هاجموا الأرض المباعة .

أشعلوا النار فى أنفسهم ، إقتحموا المنشآت ، فى فترة حبس ماء النهر عن السكان صار يموت يومياً ألف ألف إنسان والناس لا تفنى ، قام عدد من أبناء الوادى الذين سافروا على فترات بجهود ضخمة للفت أنظار الدنيا ، بلغت حملتهم ذروتها فى نفس الوقت الذى فرغ فيه علماء الآثار التابعين لاتحاد الملاك من تغيير التاريخ المعروف للوادى ، لدرجة إعادة اكتشاف اللغة الهيروغليفية من جديد ، وإسقاط ما توصل إليه شامبليون بعد اكتشافه حجر رشيد ، واستندوا فى ذلك إلى انقراض المتكلمين بها ومن ثم عدم ثبات المعنى ، كما فرغ مالك المحافظة التاسعة (سوهاج سابقاً) من مشروعه الخاص بإنشاء جبل صناعى أعلن أنه سيكسوه بالثلوج والغابات ، وسيصبح من أجمل مصايف العالم ، رصد جائزة قدرها مليون إستكالش لصاحب أجمل تصميم . فى نفس الفترة تزوج إبن مالك المحافظة الرابعة من ابنة مالك المحافظة الثانية ، غير أن حملة أبناء الوادى أدركتهم جميعاً بما كانوا عنه غافلين . .

نص ما أذيع

ننهى إلى الدنيا ما يلى :

منذ فترة رفع اتحاد الملاك الأغراب قضية أمام المجلس الأعلى لهيئة الأمم مطالبين شعبنا بإخلاء الوادى ، وبغض النظر عن تزوير الدعوى ، وتحوير الفتاوى ، وتزييف التاريخ والقول بأسبقية وجودهم نعلن بطلان الحجة القانونية التى استندوا إليها فى إقامة دعـوى الإخلاء ، إدعـوا أن الوادى كله أصبح ملكاً لهم ، وأنهم اقتطعوا جزءاً من أمـلاكهم ليقيم عليه ، ما تبقى من السكان « على حد تعبيرهم نقـول ان هذه الـدعوى باطلة ، الحقيقة أن أرض الوادى ليست ملكاً لهم بأكملها ، يوجد فدان واحد لا زال ملكاً لصاحبه ، وموقعه فى الصعيد الأعلى ، يتعرض مالكه لضغوط ، وإغراءات بلا حصر ، لكنه محمى الآن بأهل مصر المحروسة ، ويعرف بين الجميع بـ : « أرض مصر » ومهما تضاءلت مساحة الأرض فإن هذا يفسد ما ارتكز إليه الأغراب عنا ، ويبطل دعوى الإخلاء » . . .

أرض مصر

لم يمثل إعلان أبناء الوادى مفاجأة لكثيرين من شعب الوادى ، منذ فترة ترددت أقوال عديدة حول ذلك الفدان ، بدأ الأمر كوهم ، كإشاعة ، ثم تزايد الهمس بعد بيع النيل ، قال سكان الصعيد الأعلى انهم يعرفون

هذا الفلاح صاحب « أرض مصر المحروسة » ، فقير ، لا يمتلك إلا هذه المساحة التى آلت إليه جيلا بعد جيل ، رب أسرة كبيرة ، معمر لا يدرى أحد حقيقة سنه ، يزعمون أنه تخطى المائة والخمسين عاماً ، لا زال شعره أسود وقامته منتصبة وأسنانه لم تتساقط بعد ، يعمل يومياً ، يبذر الحب ، يسوى الأرض ، يقتلع الحشائش الضارة ، قالوا ان الشيب لم يدركه لأنه لا يعبس قط ولا يحمل هماً ، يحفظ الحكايات ، يروى النوادر ، يعرف بلاد الوادى وقراه ، أسر الوادى وأفرادها والأماكن المستقرين بها أو رحلوا إليها ، ذريته لا تحصى ، عاش حتى رأى أحفاد أحفاده ، لا زال قادراً على الإنجاب ، إذا احتضن جذع النخلة يمكنه اقتلاعه ، منذ أعوام فاجأته أوجاع ، ذهب إلى طبيب ، قال انها البروستاتا ، إذا كنت قادراً لن أستئصلها لك ، تحمل وسأعطيك دواء يخفف عنك ، بالكشف عليه وجد الطبيب أنه قادر على إخصاب فتاة فى الرابعة عشر وإمرأة فى آخر العمر ، تردد أنه متزوج من أربعة والفدان ملك أولهن ، نفى الكثيرون ذلك ، قيل أن أبناءه محاربون أشداء ، يقودون عمليات عنف ، يستنفرون الناس ، أنه يقيم مناحة عظمى فى ذكرى بيع النيل ، اتجه الناس إلى أرض مصر لحمايتها حتى شكلوا سياجاً من أجسادهم حولها .

عندما قام الملاك الأغراب بقطع المياه حتى يموت الزرع وتجف الخضرة ، قام عشرات من أبناء الوادى الحاصلين على شهادات زراعية

رفيعة فى الزمن المنقضى بالتوجه إلى الفدان « أرض مصر » استحدثوا وسائل عديدة لضمان استمرار الرى . لم يعرف ما عملوه ، لكن قيل ان نبعاً تفجر يسقى الزرع وأصحابه ومن يحمون الأرض ، الثمار تنمو مكتوب عليها « حمى الله أرض مصر » ، اذا اهتز الشجر يصدر وشوشة أو حفيفاً إنما يسمع دعاء « حمى الله أرض مصر » .

إذا هبت العاصفة من الجبل تتحول عن طريقها فوق الفدان ، تصفو من ذرات الرمال ، وفى وهج الشمس يجىء غمام يلقى ظلاً فوق الفدان اليتيم الباقى .

عندما قامت طائرات الأغراب برش المزروعات ، حملت الريح المواد السامة بعيداً ، أحضر العلماء من أبناء الوادى مواد تفسد تأثير السموم ، لم تعرف الآفات طريقها إلى « أرض مصر » ، دودة القطن رآها الكثيرون تحيد بعيداً ، عندما عرض الملاك الأغراب ثمناً خيالياً على العجوز ، ومنحه أرضاً فى أى مكان بالعالم ، ومواشى حديثة ، وماكينة لتفريخ البيض ، وأخرى لخض الزبد ، رفض عندما أرسلوا القتلة والمخربين قوبلوا بعنف ، شلت أيديهم ، هجر بعض أبناء الوادى مواقعهم فى أنحاء مختلفة من العالم ، جاءوا إلى الفدان : « أرض مصر » ، عندما قام الملاك الأغراب بفتح جميع عيون القناطر القريبة ذات ليلة وأحدثوا ثغرة فى الجسر المحاذى للفدان « أرض مصر » ، اتجه عدد لا يعرف مقداره بالضبط ،

ضم رجالاً مسنين ، شبابا ، أطفالا ، وعددا لا يحصى من نساء يحملن أطفالاً رضع على صدورهن ، تجاوروا ، أمسك كل منهم بذراع الآخر ، قيل ان بعض الأمهات حملن أطفالهن بيد وألقمنهن أثدائهن بينما تلاحمن بجيرانهن ، دفعوا بأجسادهم إلى الخلف ليسدوا الثغرة ويحوشوا ماء الغرق . . . » .

يوليو ١٩٧٥

التراء

.. فى مقابلة أجرتها إحدى المذيعات بالقناة الثانية ، قدمت بروح فكهة رجلا قال إنه مؤسس جمعية أصدقاء الترام ، حدث ذلك خلال برنامج مسائى يقدم شخصيات يتم اللقاء بها بدون ترتيب مسبق ، تجاوز الرجل الستين ، قال أنه عمل موظفاً بوزارة التموين حتى أحيل إلى المعاش بدون توقيع أى جزاء عليه طوال مدة خدمته ، يسكن الضواحى ويمتلك بيتاً مستقلا من طابق واحد تحيطه حديقة يزرع فيها كل ما يحتاجه . وبرغم سكنه البعيد وعدم إضطراره إلى ركوب المواصلات فمنذ فترة لا يستطيع تحديدها بالضبط لم يكف عن التفكير فى الترام ، خلال نزوله المدينة اقترب كثيراً من مركبات الترام ، هاله ما رأى ، ما وصل إليه الحال من إهمال ، ولأن التَرام أقدم وسائل المواصلات فى القاهرة والإسكندرية ، ولأنه دخل البلاد قبل سائر المواصلات الأخرى فيجب ألا ندعه هكذا ، سألته المذيعة عن طبيعة العمل الذى ينوى من خلاله إعادة اعتبار الترام ، قال انه أنشأ بالفعل جمعية لأصدقاء الترام ، تتلخص أهدافها فى الدعوة إلى ركوب الترامويات ، والعناية بها ، والارتقاء بمستوى السائقين والمحصلين والمفتشين والفنيين ، ثم وجه دعوة إلى جميع المواطنين للاشتراك فى الجمعية . أنهت المذيعة اللقاء بمشاركته توجيه الدعوة ، ولابد أن

المشاهدين فى هذه الليلة هزوا رؤوسهم لمدى الهيافة التى وصلت إليها برامج التليفزيون ، ربما بقى فى الأذهان ملامح باهتة للرجل ، اضطراره إلى بلع ريقه مرتين ، بما حاولوا إستعادة كلماته عندما أشارت إفتتاحية الأهرام إلى حديث العجوز صباح اليوم التالى ، جاء بها أن مختلف ما يجرى محلياً وعالمياً يجب ألا يشغلنا عن أمور جوهرية فى حياتنا ، ان المتأمل لوضع الترام يجد أنه قد وصل إلى حد من المهانة المؤلمة ، أى نظرة إلى الترام تكشف هذا ، طلاء جميع العربات لم يجدد منذ سنوات ، المقاعد الجلدية قطعتها أمواس الصبية الذين لم يبث أحد فى نفوسهم حب الترام ، إذ لم يضع التربويون مناهج تربط النشء بتاريخ الترام ، تبرز فوائده وأهميته ، أن المركبات متشققة ، متعبة خاصة القديم منها ، أما ما وصلت إليه « السنجات » ، فأمر يرثى له ، لا توجد سنجة واحدة تستمر معلقة إلى أسلاك الكهرباء لمدة خمس دقائق ، يضطر الكمسارى إلى النزول ، أو يتطوع أحد العابرين بإعادتها إلى مكانها ، إن الترام هو المركبة الوحيدة التى يمكن إيقافها برغم أنف السائق وذلك بشد « السنجة » ، نلاحظ أيضاً أن سائق الترام هو الوحيد فى البلاد الذى يقف على قدميه طوال نوبته ، بعض الدول المتقدمة تكنيكياً ، أضافت مقعداً صغيراً للسائق ، وخطت دول أخرى إلى ما هو أبعد فخصصت كبائن صغيرة تعزل السائقين عن زحام الركاب ، لكن تظل الغالبية المستخدمة فى بلادنا من النوع الأول .

إن الإعياء سمة مشتركة لسائقى الترام ، انحنت جذوعهم ، تقوست أقدامهم ، غلظت أطرافهم ، أضفى هذا على كل منهم ملامح خاصة توحى لمن يراهم لأول مرة وبدون معرفة مسبقة بأن الماثل أمامه ، سائق ترام ، لا يفكر أحد ما وصل إليه حال المرفق من تدهور ، من هنا يجب التقاط الدعوة إلى تطويره وتدعيمها ، إختتمت افتتاحية الأهرام بدون حث القراء على خطوة محددة ، ولوحظ أن هذه الافتتاحية أذيعت عقب نشرة أخبار الظهيرة ، كما صدر تعميم علوى من التنظيم السياسى بمناقشتها فى جميع الاجتماعات التى عقدت خلال اليوم فى سائر الوحدات الانتاجية والأقسام الإدارية والمناطق التابعة ، وحتى يظل التليفزيون محتفظاً بسبقه إلى الدعوة فقد خصص برنامج يومى يذاع بعد أخبار التاسعة والنصف ومدته عشر دقائق ، ويتضمن رسائل المشاهدين ، ولقاءات مع المعمرين الذين شاهدوا دخول الترام لمصر ، وأحاديث مع بعض الصحفيين الذين زاروا بلاداً بعيدة واطلعوا على النظم المختلفة للعناية بالترام ، كما تضمنت الحلقة الأولى رسالة من المواطن على النافورى ، دعا فيها إلى إنشاء الهيئة القومية للنهوض بالترام ، وفى اليوم التالى قرأت المذيعة العديد من الأسماء التى تؤيد أصحابها الدعوة ، كما أذاعت تصريحات من وزارة الداخلية لم تبد فيه اعتراضها على تشكيل هيئة قومية للنهوض بالترام طالما أن نشاط الهيئة لم يتعرض لأسس المجتمع وقيمه وأمنه ، واشترطت تسجيل العضوية

فى أقسام الشرطة ، فى تلك الليلة يمكن القول ان الموضوع أثير على نطاق واسع ، بين أفراد العائلات وبين رواد المقاهى ، كما تحدث بعض الأقارب والمعارف إلى بعضهم تليفونياً ، ناقشوا موضوعات عامة أو خاصة ، لكن الحديث عن الترام والاهتمام المفاجىء به تخلل معظم الأحاديث ، وعندما أطبق الملايين من أهل البلاد جفونهم استعداداً للنوم احتل الترام فى أذهان معظمهم صورة من تلك الصور التى تتوالى قبل النوم ، كثيرون تأملوا مركبات الترام صباح اليوم التالى ، لوحظ زحام غير عادى على محطات الترام ، هذا لا يعنى زيادة عدد الركاب زيادة غير عادية ، لكن المثير أن أعداداً كبيرة من المواطنين تأملوا المركبات التى تسعى فى شوارع مدينتهم منذ سنين طويلة وكأنهم يكتشفونها لأول مرة ، بدت المركبات شائخة ، تهتز فى اندفاعها فوق القضبان اهتزازات خفيفة إلى اليمين ، إلى الشمال ، كأنها ستفلت من أسر القضبان الحديدية ، الطلاء بدا شاحباً فى كثير من المواضع ، أما المركبات الحديثة التى ظهرت منذ عامين فقط فى شوارع المدينة فلاحظ الأهالى أن ثمة تغيرات طرأت عليها إلى جانب الإهمال ، يبدو أن الفنيين لم يحترموا الأجهزة الحديثة بها فأبدلوا بعضها بأخرى أكثر تخلفاً وربما لم يتيسر إبدالها بمثيلاتها نظراً لنقص العملة الصعبة المخصصة لاستيراد قطع الغيار ، كثير من المصابيح الزجاجية الأمامية تحطمت ، مقاعد البلاستيك تكسرت حوافها .

فى صحيفـة الأخبار نشـر تحقيق عن الجلوس داخـل التـرام ، وقـال التحقيق ان راكب الترام يواجه الجالس أمامه ، ويتلاحم بالمجاور له ، وهذا ما لا يجرى فى الأوتوبيسـات ، سئل بعض علماء الاجتمـاع الذين أبرزوا الجوانب الإيجابية والآثار المترتبة ، وتعميق المشاعر الإنسانية والروح الاجتماعية فى عصر توشك فيه الآلة على إفساد كل ما هو إنسانى وجميل ، وقال أحد أساتذة الفلسفة بجامعة عين شمس ، ان الجلوس فى الترام ينفى عنصـر الاغتـراب لـدى الإنسـان ، وركـز علماء النفس عـلى الآثـار السيكلولوجية المترتبة على تقارب الناس ، وشعورهم بإيقاع السير البطىء وعلاقة ذلك بالحد من نسبة القلق والشعور بالاكتئاب ، وتحدث أحد أطباء القلب عن علاقة إيقاع السير البطىء للترام وضمان عدم توقفه المفاجىء بسلامة القلب ، وأكد أن الانتقال بالترام أفضل وسيلة لمرضى القلب ، ونشر صورتين علميتين ، الأولى لقلب مريض استخدم وسائل المواصلات كلها عدا الترام ، والثانية لقلب رجل لم يركب إلا الترام .

وفى جريدة الجمهورية نشر تصريح لمدير إحدى شـركات الإعـلان الكبرى التى بدأت تعمل أخيراً برأس مال مصرى ـ غربى مشترك ، قال ان الترام يعد من أفضل أماكن الإعلان ، إذ توجد به مساحات عريضة على جانبيه ، كما يمكن تعليق لافتات بكافة الأحجام فوقه ، ويمكن إبراز الشىء المعلن عنه بوضوح . والمادة المصنـوع منها جسم التـرام تتقبل أى لـون

وتحتفظ بمقوماته الأصلية ، بالإضافة إلى نقطة هامة للغاية ، إنها سير الترام البطىء ، يمكن للماشى على قدميه أو الجالس فى شرفة أو المطل من نافذة أو مدخن النرجيلة أمام أى مقهى من قراءة الإعلان ، فى نفس الجريدة أجرت إحدى الصحفيات مقابلة مع تاجر لعب أطفال ، قال ان أجمل النماذج التى يبيعها للأولاد من مختلف الأعمار هو الترام ، وقال ان رجال الجيل الحالى يتذكرون تلك اللعب الصغيرة أثناء طفولتهم والتى تمثل مركبات الترام المفتوحة والقديمة ، وخلال السنوات الأخيرة ظهرت مركبات متطورة من الترام وعرض نماذج مصغرة لها فى متجره ، وقال ان الترام كلعبة يفتح مدارك الطفل ويثير فى خياله العديد من الصور ، ويفتح أمامه آفاقاً عديدة خاصة فيما يتعلق بآفاقهم الكهربائية .

كما صرح قائد شرطة آداب البلاد بأن حوادث النشل تقل كثيراً بالترام ، وذلك لاتساع أماكن الوقوف وعدم إتاحة الفرصة لاهتزازات كثيرة تتيح الاحتكاك ، كما أن خدش حياء الأناث يقل كثيراً ، وقال أن عربات الترام حافظت على قيم المجتمع ومثله عندما خصصت عربة للحريم ، لا يمكن لرجل أن يركب بها أو يقف أمامها ، وقال ان بعض العجائز يجدن فيه متسعاً ومكاناً مريحاً ، يقعدون فوق أرضية المركبات ويسندون ما يحملونه أمامهم .

وفى بـداية اجتمـاع كبـير قـال وكيـل وزارة الإقتصـاد المختص ان اقتصاديات تشغيل الترام أقـل من أى وسيلة أخرى ، والتمسـك بها ، وتعميمها سيؤدى إلى وفر فى الميزانية يساعد البلاد على التصدى لمسؤوليات أخرى جسيمة يتطلبها الموقف الذى يجتازه اقتصادنا ، فى نفس اليوم تحدث أحد أساتذة التاريخ المصرى المعاصر إلى طلبته ، وقال ان الدور الوطنى للترام لا يقتصر على مدى الوفر الذى يمكن أن يحققه فى ميزانية البلاد ، ان هذه نظرة قاصرة وتعزل الاقتصاد عن بقية الجوانب العلمية الأخرى ، أنه بصدد وضع مؤلف يتناول الدور الوطنى للترام منذ ظهوره ، ثم تحدث عن نضال عمال ومستخدمى الترام الذين كافحوا ضد أصحاب شركات الترام الأجانب فى بداية القرن ، ثم أسهب فى الحديث عن الإضراب العمالى الكبير الذى جرى عام ١٩٠٨ ، وذهاب عائلات المصريـين إلى الورش والمركبات ومشاركتهم الفعالة ، ثم تكرار هذه الإضرابات « التراموية » التى ساهمت فى توعية العمال بحقوقهم من ناحية ، وبلورة الشعور القومى من ناحية أخرى مما أوجد رافداً هاماً أدى إلى ثورة ١٩١٩ ، ولا يقتصر دور الترام على ذلـك فقط ، بل تصـدت مركبـاته لـلإنجليز عنـدمـا قلبهـا المتظاهرون واستخدموها كمتاريس ، ثم قدم إلى الطلبة صوراً نادرة تؤكد الدور الوطنى المباشر للترام .

في اليوم التالى عقد اجتماع موسع بالمقر العام للمنظمات الشبابية ، وأعلن المقرر العام اتخاذ قرار يقضى بمشاركة جماهير الشباب الطلابية والعمالية وشباب الموظفين فى حملة واسعة من أجل إعادة طلاء مركبات الترام ، وتنظيف القضبان ، وستقدم دروع وكئوس لأقدم العاملين بالمرفق .

علق المواطنون على ذلك الاهتمام الواسع بالترام أثناء وقوفهم فى مختلف الطوابير ، أمام مكاتب الجوازات ، الجمعيات التعاونية نوافذ الحجز ، بنوك العملات المحلية والأجنبية ، مكاتب السجلات المدنية ، كم جرت مناقشات هامة فى المناطق الحرة بالبلاد ، والمقاهى الأفرنجية التى تقدم المشروبات الساخنة والجلاس وقطع الحلوى الصغيرة والمشهيات ، وفى المقاهى الشعبية ، ومقار النقابات المهنية ، العمالية ، وقال البعض انها محاولة لحرف أنظار الناس عن المشاكل الحقيقية ، اعترض آخرون وقالوا ان الموضوع يتم بشكل تلقائى ، ويشارك فيه فئات عديدة ، ولا يمكن أن يصل إلى هذا الشكل لو أن الأمر مدبر أو مخطط له من قبل إحدى الهيئات ، لكن بعض القوى المعنية التى تقوم ، دائماً بالمعارضة من أجل المعارضة لم تخف امتعاضها إزاء تلك الأهمية المتزايدة والموجهة نحو الترام ، حاولت تلك القوى ترويج إشاعات معينة ، ونكت تدور حول الترام ، وهددت المباحث العامة أنه سيتم الضرب بشدة على أيدى كل من

يحاول الخروج بمعارضته عن حيز القول والإحتجاج ، ولم يفهم ما المقصود بذلك ، كما أن موقف أجهزة الأمن المختلفة من الترام ، وقد تعود الناس أن هذه الأجهزة لها موقف من كل الأمور الصغيرة والكبيرة ، موقف خفى غير معلن لكنه يعرف لدى الناس بالإحساس ، بوسائل ما ، ثمة حكاية تروى ربما أوضحت بعض ما خفى ، أثناء قيام رجال المباحث بالتحقيق مع خلية سرية من الشبان الصغار ، صفع الضابط المحقق أحد الشبان وخاطبه قائلا : لماذا تتوجهون إلى العمل السرى وأمامكم العديد من النشاطات التى يمكن لكم الاشتراك فيها ، لماذا لا تعبرون عن رأيكم فيما يجرى حول الترام ؟ .

يمكن القول انه بعد عدة أيام نما شعور بين جميع الفئات بالتعاطف مع الترام ، حتى أصحاب السيارات الذين اعتدوا كثيراً على المجارى الخاصة بالترام ، فى وسط الطريق عندما يشتد الزحام ، وبلغ شعور التعاطف قمته فى شارع الأزهر الرئيسى الذى أزيل منه الترام ، منذ عشر سنوات ، أقام أحد تجار المانيفاتورة سرادقاً ضخماً يتسع لألف شخص ودعا إليه ثلاثة من المقرئين الكبار ، وبعد انتهاء المشايخ الثلاثة من التلاوة الكريمة خطب التاجر فى المحتشدين سمع صوته فى أقصى الشارع بواسطة مكبرات الصوت المصرح له باستخدامها ، أعلن أنه يُحْيى الليلة ذكرى اليوم الذى أزيلت فيه مركبات الترام من شارع الأزهر ، قال أن ذلك من السلبيات

التى جرت ، أثر انتهاء كلمته قام البعض بتحرير صيغة برقية على الجالسين مرسلة إلى كافة المسؤولين لإعادة الترام إلى شارع الأزهر ، كما تقرر إحياء ذكرى انتزاع الخط سنوياً ، حتى فى حالة إعادة الخط القديم .

ورشحت جريدة « الأخبار » رجلاً تجاوز السبعين ، أطلقت عليه لقب « راكب الترام الأول » ، أدلى بحديث طويل روى فيه ذكرياته عن الترام التى تمتد إلى نشأته الأولى ، لم يستخدم غير الترام وسيلة لانتقاله ، قال ان عدداً كبيراً من الكمسارية والسائقين القدامى يعرفونه ، كثيراً ما تبادل معهم الحديث خلال الزمن الرائق ، الجميل ، المولى ، كما تبادل معهم السجائر ، قال انه يعتبر ركوبه الترام فقط أحد الأسباب التى أدت إلى إطالة عمره .

وقد حكى بعضاً من ذكرياته ، عندما افتتح أول خط للترام ، أثناء مروره أمام مقهى شعبى ، قام الجالسون فزعاً ظناً منهم بأن المركبة وحش غامض ، ولفترة تلت هذه الحادثة استمر رواد المقاهى التى يمر بها الترام يقومون حاملين مقاعدهم ويتوارون داخل المقاهى .

فى اليوم التالى دعى « راكب الترام الأول » إلى إلقاء محاضرة بمدرسة البنات الثانوية بشبرا ، أجاب على أسئلة الطالبات ، إقترح أحد القراء تكريمه فى حفل قومى يدعى إليه كبار المسؤولين ، ويهدى إليه درعاً جديداً

إسمه « ترع الترام » ، غير أن الدولة أخذت المبادرة ، أعلن عن إنشاء وسام جديد ، وسام الترام ، حددت أنواعه بثلاث طبقات . .

* وسام الترام من الطبقة الأولى .

* وسام الترام من الطبقة الثانية .

* وسام الترام من الطبقة الثالثة .

ويمثل شكل الوسام عربة ترام قديمة من النوع الذى استعمل لأول مرة فى العاصمة ، تشع منها أضواء جسدت بالفضة بينما جسم الترام نفسه من الذهب ، أما المصابيح الأمامية فمن الماس النقى ، ولا تختلف الطبقة الأولى عن الطبقتين الأخريين إلا فى نوعية المعدن المصنوع منه جسم الترام ، تصاعد الاهتمام بالترام إلى حد كبير فيما تلى ذلك من أيام ، عقد العديد من الندوات لإحياء دور الترام التاريخى ، أجرى عدد من الساسة القدامى اتصالات مكثفة لإنشاء « الهيئة القومية العليا للترام » والتى دعا إليها ذلك الراكب المجهول والذى اختفى تماماً بعد أن أدلى بحديثه التليفزيونى ، اعترض بعض الشباب على انفراد الساسة بالعمل وأصدروا بياناً دعوا فيه إلى ضرورة الإصغاء إلى رأى المستقبل ، كما جرت مناقشات عديدة منظمة وتلقائية ، وتمت الأخيرة فى وسائل المواصلات ، خاصة القطارات التى تستغرق وقتاً ، ويعى المواطنون بعض الوجوه التى تقلصت

ملامحها أثناء الحديث عن الترام ، وقبضات الأيدى المضمومة الملوحة فى الهواء ، والأصابع المتوترة المشدودة إذ تشير مهددة ، والأسنان التى تعض على الشفاه ، وصرخات التعجب التى تتخلل الأحاديث ، كتبت مقالات عديدة يتساءل أصحابها عن المقصود بالترام ؟ ألا تدخل مركبات المترو الحديثة فى نوعية الترام ، بل هذه المركبات الترامية الحديثة المستوردة من البلاد الشرقية ، ألا تمت بصلة إلى جنس الترام ؟ والتروللى باس . . . إلى أى جنس ينتمى ؟ . .

كلمات كثيرة حول هذه القضية ، تليت من الإذاعة والتليفزيون ، وقيلت حول موائد مستديرة وداخل حجرات مغلقة وفى اجتماعات عامة ، وفى سرادقات منصوبة من القماش ، ودون المستمعون إليها آلاف الملاحظات بمختلف أنواع الأقلام ، وشرب قائلوها أكواب ماء كثيرة أثناء حديثهم وجربت الميكروفونات المستعملة مئات المرات بنقر الأصابع عليها أو نفخ الأفواه فيها ، كما قيلت عبارات مثل « سيداتى آنساتى سادتى » . . « مساء الخير أيها المستمعون الكرام » . . آلاف المرات ، كما استهلكت كميات لا حصر لها من الورق ، والدفاتر ، والدبابيس التى ثبت بها البعض ملاحظاتهم المرفقة بالنصوص الأصلية ، وازداد الأمر عندما أدلى وزير التربية والتعليم العالى والمتوسط ببيان أعلن فيه دخول الترام كمادة دراسة أساسية يشترط النجاح فيها للانتقال من مرحلة إلى أخرى ، حدد

محتوى هذه المادة فى رسالة أذاعتها وسائل الإعلام إلى أبنائـه الطلاب ، وتضمنت دراسة أنواع الترام وأشهر المصانع المتخصصة فيه ، ودراسـة أجزائه ، وشبكات الكهرباء التى تقوم بتغذيته وخلال امتحانـات النقل بالمنطقة الوسطى ورد سؤال فى التعبير نصه كما يلى :

« اكتب خمسة عشر سطراً حول الترام موضحاً به عـدد العجلات بالمركبة الواحدة.ومقدار المسافة الفاصلة بين العجلة والأخرى » .

وأعلنت المكاتب الأساسية بالبلاد عن عزمها إرسال وفود متتالية من ممثلى الهيئات البرلمانية والشعبية إلى مدينة شارلروا ، البلجيكية باعتبارها أكبر مدن العالم لصناعة الترامـويات ، فى نفس الـوقت انهالت برقيـات عديدة من سكان مختلف المدن مطالبين بإدخال الترام ، ودعا أحد الكتاب فى مجلة العلوم الثقافية إلى تمجيد فكرة التـرام ، وقررت مصلحـة صك النقود إصدار عملة تذكارية خاصـة عليها صـورة ترام ، أعلن رؤ سـاء التحرير الثلاثة معارضتهم وطالبوا بإصدار عملة دائمة للترام ، وعد مدير مصلحة الصك بدراسة الفكرة وتأثيرها على النقد المتداول وحجمه ، كما ظهر إعلان من هيئة الإسطوانات يحذر المقلدين من تزييف إسطوانـات التـرام والكاسيت التى انتشـرت فى البلاد ، وتتضمن هـذه التسجيلات أصواتاً مختلفـة لأجراس التـرام من مختلف الأنواع ، وأصـوات احتكاك العجلات بالقضبان ، وصوت الفرامل لحظة أن تقبض على العجلات ،

والصرير عند المنحنيات ، وتضمن الإعلان عزم الهيئة على طبع إسطوانات تحوى صوت سريان الكهرباء فى الأسلاك ، وهذا ما لم يتم من قبل ، وتقدم أحد المشتغلين بالسياسة للحصول على ترخيص بإصدار صحيفة اسمها « الترام » لقد نظمت ندوات وأعلن أنه سيجرى مجمع اللغة العربية بحثاً عن إضافة لفظ « الترام » إلى القاموس الفصيح المعتمد ، وقامت بعض المصانع بصك ميداليات صغيرة تعلق إلى الصدر أو تتدلى من الأحزمة تمثل الترام فى أوضاعه المختلفة ، وزعت هذه الميداليات على أعضاء الوفود الأجنبية التى بدأت فى الوصول وتدلت من صدورهم ، كما أعلن عالم مصرولوجى اكتشاف رسم على جدران معبد فرعونى قديم يشبه الترام وتساءل ، هل عرف الفراعنة الترام ، وقال انه سيعقد اجتماعاً يجيب فيه على ذلك ، غير أن المعارضين بدأوا التحرك ، وفى الفترة الأخيرة وقع منشور سرى من إحدى الجماعات التى تعمل تحت الأرض فى أيدى رجال المباحث والتحرى ، دعا المنشور إلى اليقظة والحذر ، وزع المنشور فى بعض مركبات الترام ، عقد مدير هيئة قمع المعارضة مؤتمراً أذاع فيه نص المنشور ، واتهم بعض الدول الأجنبية ، واعترف بوجود معارضه للأهداف القومية المؤيدة للترام والتى عبرت عنها الجماهير تعبيراً أذهل العدو قبل الصديق ، وقال إن تلك الأهداف تلقى تأييداً واسعاً من

شعبنا ، لدرجة أن كثيرا من الآباء أنجبوا مواليد فى الفترة الأخيرة ، أطلقوا على أبنائهم اسم واحد ترام . .

مايو ١٩٧٦

الفندق

.. غير أن ما لفت الأنظار تلك الإعلانات التي بدأت تظهر خلال الشهر الأخير عن مهرجان مصر العالمى للفنون السينمائية ، والذى سيقام تحت رعاية فندق التى تى . تساءل كثيرون ، ما هى علاقة التى تى بمهرجان يحمل اسم مصر ؟ تساءل بعض الناس فى أحاديثهم العادية عن سر تبنى الفندق لهذا المهرجان ؟ ولما أجيبوا بأنها الدعاية ، تعجبوا ، وهل يحتاج الأمر إلى دعاية ؟ فى أى شارع تقع العين على لا ئحة تحمل اسم التى تى ، أو أحد مطاعم التى تى ، أو شاب وفتاة يرتدى كل منهما قميصا عليه شعار التى تى ، أو دكان حلوى يبيع جيلاتى التى تى .

عبر أحد الكتاب عما يساوره من قلق خاصة مع الدعاية المكثفة لهذا المهرجان ، لكن هاجمته أقلام عديدة ، وقال موظف كبير لزميله أثناء حديث تليفونى ، ان أمثال هذا الكاتب يشوه وجه مصر ، كما كتب ناقد فنى قائلا ، يكفى مصر فخراً أن العديد من المجلات العالمية ستذكر اسم مصر عند نشر أخبار المهرجان ، وأن مجلة النيوزويك التى تطبع عشرة ملايين نسخة ستخصص ربع صفحة فى عددها الصادر يوم افتتاح المهرجان وهذه خير دعاية لمصر ، كما أن الصحف التابعة لمؤسسة التى تى ستصدر أعداداً خاصة عن المهرجان ، وقال نجم سينمائى معروف أثناء

حديثه إلى منتج كبير فى نادى التى فى الأوسط ، حان لمصر أن تلحق بركب المهرجانات السينمائية ، بعد طول انغلاق ، وقالت نجمة معروفة فى حفلة خاصة ، يكفى أن الجمهور المصرى سيشهد عن قرب صدر كلوديا ، وعيون آلان ديلون ، من ناحية أخرى أرسل مدير العلاقات العامة للتى فى نسخاً عديدة من خطاب وجهه إلى الصحف ، وإلى كبار الموظفين ، والمديرين ، والوكلاء ، وبعض الأطباء المشاهير ، ورؤساء النوادى ، ومديرى المدارس الأجنبية ، وبعض الطلبة فى مراحل التعليم المختلفة ، أشار فيه إلى الأصوات الحرة التى تقف إلى جانب المهرجان ، وأكد أن كل شىء سيتم فى موعده المحدد . .

سرت الدهشة بين الناس ، وتعجب المواطنون ، وأبدى معظمهم أسفاً ، والحقيقة أن الأمر بدأ قبل المهرجان ، بالتحديد منذ بداية الستينيات ، عندما بدأ ارتفاع الهيكل الخرسانى للتى فى ، فشل الكثيرون فى عد الطوابق ، ينتظمون حتى الثانى والثلاثين أو الرابع والخمسين ثم تتوه نظراتهم فى الأعمدة الخشبية المتشابكة ، المتداخلة ، ثم بدا الهيكل يتعرى من السقالات وكلما أزيح جانب منها يبدو جزء من الطلاء الناصع البياض المشوب بزرقة خفيفة ، ومن أى مكان فى القاهرة يبدو المبنى ، إذا وقفت فى الأزهر سيبدو شاهق الارتفاع فى مكانه قرب الجزيرة ، بل أن أهالى عين شمس ، ومصر الجديدة ، تابعوا خطوات بنائه من شرفاتهم ، وفى حدائق القناطر

الخيرية أمكن للمتنزهين رؤ ية المبنى عند الأفق ، قيل ان المهندس الذى صممه راعى أن يبدو واضحاً من جميع الانحاء مهما علت المبانى فى المستقبل . فى تلك الفترة جرى نشاط كبير فى البلاد ، ولو رصد أحد الباحثين نوعية الانتاج وقتئذ لوجد أن قطاعاً ضخماً منه وجه إلى التى تى ، خصصت مصانع التكييف انتاجها كله للفندق ، أيضاً ورش السجاد البدوى التى انهمكت فى صناعة سجاد ذى مواصفات موحدة . استورد صوف برتقالى خصيصاً . أما المصنع المركزى بدمنهور فقد تفرغ تماماً لانجاز عدة آلاف من الأمتار التى ستستخدم كمشايات بين الطرقات الرئيسية والفرعية . تفرغت أيضاً مصانع الزجاج ، ومصانع الشوك والملاعق ، وطفايات السجائر ، وأدوات الطعام كافة ، ومصانع المشاجب ، ومقابض ، الأبواب ، والأدوات الصحية . .

عرف حرص الشركة على تنفيذ معظم احتياجات الفندق فى السوق المحلية طبقاً لمواصفاتها الخاصة ، وذلك لرخص الخامات ، والأيدى العاملة ، فيما عدا الوسائد ، والمراتب ، والنجف ، والأجراس الموسيقية ، والرخام الملون ، وبعض أنواع القيشانى . وأطقم الفضة الخاصة باستعمال كبار الشخصيات . تم استيراد هذا من الخارج .

فى أوائل السبعينات بدأت الصحف اليومية تنشر اعلانات كبيرة عن نشاط شركة التى تى فى المجال الفندقى ، هكذا قرأ الناس معلومات عن تى

تى البحـرين ، ورأوا صوراً للتى تى بـورما ، وتى تى نيـويورك ، وتى تى سيدنى ، لوحظ أن كل تى تى يشبه مدينة صغيرة ، جاء فى اعلان تى تى داكار أنه يوجد قطار خاص بالتى تى . ينقل النزلاء إلى مختلف أنحاء السنغال ، وفى تى تى هونج كونج محطة ارسال تليفزيونية مدير التى تى فى سيدنى بعقد مؤتمر صحفياً أسبوعياً يدلى فيه برأيه فى الحوادث العالمية والمحلية ، ويهدد بقطع معونـة شركـات التى تى عن بعض البلاد الصغيـرة الفقيرة . وفى طهران قام التى تى بنشـاط ضخم فى مجال البحث عن الآثـار الفارسية القديمة ، كما ساهم فى حل المشكلات التموينية .

ثم بدأت تظهر فى الصور اعلانات يحتل منها ربع صفحة فارغة إلا من كلمتين فقط : « تى . . تى » . استمر ذلك لمدة عشرة أيام ، ثم أضيفت كلمتان : « ترقبوا . . تيتى . . القاهرة » . بعد أسبوعين حدثت ظاهرة فى مجال الفن الاعلانى ، إذ ان شركة التى تى نشرت إعلاناً ضخماً فى جميع الجرائد الصادرة استغرق كافة صفحاتها . وتلك سابقة اعلانية لم تحدث ، اضطرت الأهرام إلى إصدار ملحق من صفحتين تضمن اخبـار الدولـة والعالم تساءل أحد أساتذة كلية الأعـلام أثناء القـائه محـاضرة عن معنى ذلك ؟ . فى ذلك اليوم اضيئت لافتة ضخمة زرقاء اللون فوق اعلى نقطة بمبنى التى تى . واضيئت فوقها مصابيح حمراء لتحذير الطائرات خوفاً من الاصطدام بها ، أصبحت اللافتة من العلامات الأرضية المميزة للقاهرة ،

ظهرت فى الصور التى التقطتها الأقمار الصناعية التابعة للدولتين الأعظم ، كما حرص الطيارون على التنبيه إليها فى الميكروفون الداخلى ، : « يمكنكم أن تروا إلى اليمين فندق التى تى » . وقيل انهم يقبضون مقابل هذه العبارة . .

فى ليلة الافتتاح ألقى المدير العام لتى تى القاهرة كلمة أعلن فيها أن الشركة حريصة على تقارب المجتمع الانسانى ، وشعارها تى تى لكل بلد ، أبدى اعجابه بالآثار المصرية ، ثم وعد بأنه سيضغط فى اجتماع مجلس الإدارة العالمي القادم من أجل طباعة صورة الأهرام فى مكتب الدعاية السنوى الذى تصدره مجموعة التى تى .

بعد افتتاح الفندق خصص عامود كامل فى جريدتى الأخبار والأهرام تحت عنوان : « يوميات التى تى » ، يتضمن أهم الشخصيات التى وصلت ، أو انتهت اقامتها ، أو تقيم ، والمؤتمرات التى تعقد ، وحفلات المؤسسات ، والأعراس ، والأفلام والمسرحيات المعروضة أو التى ستعرض .

يمكن القول ان هذه الأخبار هى مصدر المعلومات الوحيد المتاح ، من خلالها أمكن معرفة بعض التفاصيل ، تبين أن الفندق يضم سبعة حمامات سباحة ، أولها فى الطابق السادس وتحيط به حديقة صناعية كبيرة ،

به أربع قاعات للاجتماعات ، مزودة بأجهزة الترجمة الفورية ، وسبع عشرة قاعة للاحتفالات ، لا تشبه واحدة الأخرى ، وعدة ملاهى ليلية ، وكازينو للعب القمار ، وملعب صغير للتزحلق على الجليد فى الطابق الخمسين . وقاعة للعروض المسرحية . وقاعة أوبرا صغيرة وقاعات للعروض السينمائية ، ومطار صغير معد لاستقبال طائرات الهيلوكبتر .

تلك بعض المعلومات التى عرفت ، لكن المؤكد أنه ما من نزيل ألم بكل جوانب التى تى ، قيل باستحالة ذلك لتشعبه واتساعه . وتزعم بعض المبالغات أن كثيرين من موظفى التى تى محرم عليهم مفارقة مواقع عملهم ، ويتقاضى هؤلاء الموظفون مرتبات كبيرة ، حتى أشيع أن أحد وكلاء الوزارات استقال من منصبه ليعمل موظفاً للآلة الكاتبة وذلك بعد أن هان منصب وكيل الوزارة ، وأصبح لكل واحدة أربعين أو خمسين وكيلا ، أصبح التى تى المكان المفضل للفئات الراقية التى أبدت ارتياحها لارتفاع الأسعار مما يعجز كثيرون عن ارتياده . أصبح التى تى ملجأهم بعد ازدحام كافيتريا الهيلتون بكل من هب ودب . لدرجة مشاهدة بعض الطلبة مع صديقاتهم ، وصغار الموظفين ، وأصحاب الملامح المرهقة والذين تتسخ ياقات قمصانهم بعد أول مرة يرتدونها ، لقد تسلل بعض هؤلاء إلى فندق الميرديان الحديث والمرتفع الأسعار ، وذلك عن طريق دعوات الغذاء التى تقيمها إدارات العلاقات العامة بالمصالح والشركات لبعض الخبراء

الأجانب . أحياناً يدعى خبير واحد وأتى معه خمسون موظفاً يحفون به ، ويتأملون بعيون زائغة قوائم الطعام وأصنافه . أن الحد الأدنى للطلب فى التى تى سبعة دولارات ، ويخضع نظام الطلبات لترتيب معين يقضى بتجديد المشروب كل ساعة . لم يحدث منذ الافتتاح حتى الآن أن خلت منضدة واحدة من الرواد ، الحجز لابد أن يتم مقدماً ، قاعات مشغولة كل الليالى . اشتهرت العائلات التى تزوج أبناؤها فى التى تى . طبعوا على بطاقاتهم الخاصة ما يفيد أنه تم زفافهم فى التى تى ، وحذرت إدارة التى تى أى شخص يقوم بتزييف بطاقة من هذا النوع بغرض تسهيل أعماله ، أو اتخاذه مظهراً اجتماعياً معيناً . كما حدث كثيراً فى الأسر الثرية أن اضطجع بعض الآباء أو الأمهات فى مقاعدهم . ثم قالوا للمتقدمين إلى بناتهم : « . . من شروطنا أن يتم الزفاف فى التى تى . . » شيئاً فشيئاً تشكلت فى المجتمع فئة التى تى ، ظهرت تحليلات عديدة لتنظيمات سياسية ، اعتبرها البعض فئة ، واعتبرها البعض الآخر طبقة ، ولانضمام عائلة إلى هذه الفئة أو الطبقة لابد من تردد جميع أفرادها على التى تى بانتظام ، وأن تتم زيجاتها فى قاعاته ، ويمكن لأفراد هذه العائلات السفر بنصف القيمة على طائرات التى تى . أو على خطوط التى تى الملاحية ، كما يسمح لهم بارتداء الشارة البرتقالية وتلك تسهل تعارف الرواد فى جميع أنحاء العالم .

اعتـاد رجال الأعمـال الذين نمت ثـرواتهم فى الفترة الأخيـرة عقد صفقاتهم فى التى تى . إن مجرد دعوتهم لعملائهم كى يتناولوا الغذاء فى الفندق تكفى لبعث الثقة فى مركزهم المالى . .

اعتاد أطفال الرواد على حدائق التى تى حيث تتغير اللعبة كل نصف ساعة . ويترقب أولياء أمورهم بلهفة اليوم الذى يسمح فيه للتى تى بافتتاح فروع لمدارسه الابتدائية والثانوية فى القـطر ، كما تكـون جمهور خـاص بالعروض المسرحية ، توجد عدة فرق خاصة بالتى تى تنتقل بين العواصم المختلفة ، إذا افترضنا أن فرقة التى تى للغناء الصينى تقدم عروضهـا فى القاهرة هذا الأسبوع فإنها سترحل إلى تى تى قرطاج خلال الأسبوع التالى لتجىء فرقة أخرى . لا يعنى هذا عدم وجود فرقة فنية مقيمة ، توجد فرقة للفنون الشعبية المحلية تعرض يومياً ، وقد وعدت الإدارة بانتقال هذه الفرقة إلى فـروع التى تى . وهكذا سـاهم التى تى فى انتشار الفـولكلور المصرى عالمياً ، كما تم التعاقد مع أشهر راقصتين مصريتين على الإقامة الكاملة والرقص يومياً

فى منتصف العام الحالى ، وقبل الشروع فى المهرجان السينمـائى ، أعلن فى اليوميات أن التى تى قرر تخصيص عدة عربات حديثة مستوردة من ولايـة فرجينيـا لتنظيف الشـوارع ، وهـذه العـربـات تقـوم بـالشفط ، والكنس ، لاقى هذا ترحيباً ، وقال البعض ان هـذا ليس إلا شيئاً ممـا

سيقدمه التى تى ، ثم اعتاد أهالى المناطق المجاورة ظهور هذه السيارات برتقالية اللون عندما تجول فى الصباح الباكر وتمد خراطيم بلاستيكية وتمتص الأتربة والقاذورات المستعصية . ثم تمسح الإسفلت بفرشاة ضخمة دائرية . بعد ذلك بيومين أعلن فى سطر واحد عن اجتماع اللجنة التحضيرية لمهرجان مصر السينمائى ، لم ينتبه أحد . وظن أن اللجنة تتخذ من الفندق مقراً .

وبعد أيام أعلن أنه سيتم تشغيل خط أوتوبيس خاص لنقل النزلاء من المطار ، ومساهمة فى حل أزمة المواصلات سيسمح للأفراد العاديين بالركوب مقابل دولار واحد . فى الفترة التالية لفتت هذه الأتوبيسات الأنظار بأناقتها واسترخاء الركاب فيها . تمنى أحد الفنانين أن يرى أتوبيسات القاهرة كلها بهذا الشكل . وعلى الفور عقد مدير التى تى مؤتمراً قال فى بدايته أن ما تمناه المطرب الفنان ليس ببعيد . وإن التى تى تقدم بمشروع متكامل إلى وزارة النقل . ومحافظة القاهرة ، والجهات المعنية ، يتضمن تسيير عدة خطوط تربط القاهرة ربطاً متكاملا ، محكماً ، كما أعلن عن استعداد التى تى لتقديم خبرته فى المرور . ودعا المتخصصين إلى تناول الغذاء ، ومشاهدة الدقة الفائقة فى تطبيق أحدث نظم المرور بالشوارع المؤدية إلى التى تى إذ يتردد على الفندق أربعة أو خمسة آلاف سيارة يومياً ولا يحدث أى اضطراب .

علق أحد الكتاب قائلا : إن هذا تدخل لا يليق ، وتهديد للسلام الاجتماعى .

رد عليه مدير العلاقات العامة بالتى تى . قال : إنه ليس بمستغرب اعتراض هذا الكاتب المعروف لونه جيداً ، صاحب الأفكار المستوردة ، إن التى تى حريص على حل مشاكل الناس .

بدا أكثر الناس دهشة من نشاط التى تى أصحاب الفنادق المحلية المنتشرة فى باب الحديد ، وشارع كلوت بك ، وحول مسجد الحسين . إن الفندق يعنى بالنسبة اليهم مكان ينام فيه الناس ليلا ، بعض أصحاب الفنادق أضافوا مطاعم لكنها ليست القاعدة معظم الفنادق ترسل فى طلب الوجبات من المطاعم القريبة ، استرجع صاحب فندق دار السلام بالحسين ذكرياته . قال : إن اللوكاندة التى اجتذبت رواداً فى غير مجال النوم هى الكلوب العصرى ، عام ١٩١٠ خصصت مساحة لعرض بعض الأفلام الصامتة . لكن هذا لم يستمر . إن أصحاب فنادق الدرجة الأولى أيضاً لا يخفون دهشتهم مما يحويه التى تى . يقال ان الوزراء الأجانب يتحركون داخله كأى أشخاص عاديين ، لا يلقى أحد إليهم بالا ، لأن كل نزيل يفوق الآخر أهمية ، تساءل بعض المواطنين عما ينفق فيه يومياً من أموال ، وكم من المصائر قررت داخل قاعاته ، وكم من الصفقات عقدت ، وفكر

أحد المخرجين أن ينتج فيلماً تدور أحداثه فى التى ق . لكن الإدارة لديها شركة انتاج خاصة تستغل ديكورات التى ق ، وطرقـاته ، وحجـراته ، وانشاءاته .

غير أن الاعلان عن اشراف التى ق على المهرجان يحمل اسم مصر يبدو أنه النقطة التى تراكمت عندها كل الأشياء ، خاصة أن الاشاعات سرت فى نفس الوقت عن إصدار جريدة باسم التى ق ، وانشاءسنترال خاص به ، وذلك بعد شكوى رجال الأعمال من الخطوط المحليـة ، لم يصمت مدير التى ق ، إنما أدلى بتصريح أعلن فيه رغبة التى ق فى تخفيف العبء ، عن الأجهزة الرسمية ، ثم وجه تحذيراً إلى الأصوات التى تهاجم المهرجان ، وقال انه سيعقد مؤتمراً يكشف فيه حقيقتها . .

أحدث ذلك ضجة ، لكن الاستعدادات استمرت ، ورأى المواطنون أنواعاً حديثة من الأقواس ، بعضها على هيئة كاميرات سينمائية ، وتضمن قوس أقيم بالقرب من المبنى شاشة سينمائية تعرض لقطات من الأفلام ، أدى هذا إلى تجمع الناس ، مما دعى إدارة المرور إلى كتابة خطاب رسمى إلى التى ق تطلب إزالة القوس أو إبطال آلة العرض ، رد المدير قائلا إنه حصل على تصريح خاص من إدارة الزينة والأقواس . وأن التجمهر يمكن فضه بواسطة قوى الأمن ، وبهده المناسبة فإن ثمة موضوعاً يرغب فى إثارته

مع المسؤ ولين . . فى تلك الليلة التى سبقت افتتاح المهرجان حمل مدير التى تى عدة مذكرات من أصل وبضعة صور . بدأ سلسلة من الاتصالات . عرف فيها بعد أنه طلب تدعيم قوات الأمن الموجودة حول التى تى ، مع السماح لقوة أمن التى تى الخاصة بممارسة واجباتها فى الشوارع المؤدية إليه إلى جانب عملها داخله ، خاصة وأن حادثاً وقع صباح اليوم أدى إلى ضرورة ذلك ، إذ عثر فى شارع ضيق جانبى هادىء قريب من التى تى ، على جثة فتى يرتدى جلباباً من الدمور ، نحيل الرقبة ، بارز عظام الوجنتين ، والضلوع ، يبدو أنه قادم من إحدى قرى الصعيد الأعلى ، وجد إلى جواره منديل به رغيف ذره وجبنٌ قديمٌ ، وبقايا بصلة خضراء ، وقليل من الملح المخلوط بالكمون ، وتذكرة أوتوبيس بقرش ، وفردة أستيك ، وعنوان مكتوب بالكوبيا الباهتة على ورقة قبض عليها بيده اليمنى ، بهتت حروف الكلمات فلم يمكن الاستدلال على تفاصيلها ، حول ذراعه ربط منديل آخر به خمسة عشر قرشاً وحجاب مثلث قديم ، لا يرتدى أحذية ، أو ملابس صوفية ، أدى ذلك إلى تجمده برداً كما أثبت الطبيب . .

ماذا يصبح الموقف لو رأى أحد النزلاء تلك الجثة ؟

كيف يبرر التى تى أمام أعضاء المهرجان وجود الجثة لو لمحها بعضهم ؟؟

١ اكتوبر ١٩٧٦

الزهور تتفتح

بعد رحيل ماوتسى تونج بشهور ، مضى شاعر شاب جاء من الأقاليم الجنوبية إلى رئيس تحرير جريدة « الكفاح » التى تصدر بعدة لغات تتحدث بها القوميات المتآخية فى الصين ، قدم قصيدة فى رثاء الزعيم ماو . قرأها رئيس التحرير ، ثم ابتسم ، قال انه يحيى وفاء الشاعر لزعيمه الخالد ، كما أن القصيدة تنم عن موهبة لا شك فيها . لكن . .

أصغى الشاعر بأدب عاقدا ذراعيه أمام صدره ، قال رئيس التحرير ان المبالغة فى التعبير عن الحزن تعطل الشعب عن أداء أعماله ، تعيشه فى مناخ قاتم ، لهذا يتمنى لو خفف الشاعر قليلا من حدة حزنه المشروع فى القصيدة ، ولم تنشر القصيدة فى أى جريدة أو مجلة أخرى ، منذ وقت ليس ببعيد كفت الصحف عن نشر المراثى والقصائد التى تمجد ماو ، آخر ما نشر فى هذا المجال دعوة الكاتب الكبير « تنج بنج » إلى إشتراك الشعب فى إقامة تمثال ضخم لماو فوق القاعدة الخالية بميدان « تيان آن مين » اقترح أن يصل طول التمثال إلى مائة وعشرين مترا بحيث يستطيع ركاب الطائرات الذين يعبرون سماء بكين أن يروا ذراع ماو تشير إليهم ، ودعا إلى جماعية الخلق ، بحيث لا ينفرد فنان واحد بعمله ، اقترح جمع التبرعات حتى يشعر كل صينى أنه شارك فى إقامته . على ما يذكر القراء فإن هذه

المقالة اختتمت بسلسلة من المراثى ، أما الاقتراح فبقى معلقا ، لا يطلع إلى سماء أو ينزل إلى أرض لم يدر أحدكم من الوقت مر عندما سرت إشاعة شاحبة حول مخطوط يتداول سرا ، يتناول ماو بلهجة نقدية ، وهذا ما لم يتصور إنسان حدوثه فى يوم ما ، قال شبان شاركوا فى الثورة الثقافية ان القوى المضادة بدأت التحرك ، ولابد من اليقظة تجاه هذه الزنانير التى عششت طويلا ثم تخرج الآن لتطن وتفزع ، وتحدثت صحف حائط عن الأفاعى التى باتت بياتا شتويا مديدا ثم تفح الآن . .

فى أحد الاجتماعات الحزبية بشنغهاى وجه بعض الشباب سؤالا إلى كادر حزبى حول صحة ما يقال حول هذه المخطوطة ، قال الكادر إن الأمر تضخم أكثر مما يجب ، العصفور الهزيل يظنه البعض نسرا جارحا ، والفم الاهتم يرى البعض فيه أنيابا وقواطع ، صمت لحظة ثم قال ، هناك فعلا مخطوطة متداولة منذ فترة ، يقول كاتبها إن سحر الزعيم غيم فوق عينيه ، هذا التفرد ألقى وعيه ظلا طوال السنين الماضية ، بعد الرحيل الأبدى زالت الغشاوة ، رأى ما يستحق النقد دون مذكرات خاصة عنوانها : « استرداد الوعى » ، سألت إحدى الفتيات ، من هذا الكاتب ؟

لم يجب الكادر فورا ، إنما أجرى اتصالا عاد بعده ليقول انه ، « تنج بنج » . .

تدفق غضب المجتمعين . أصغوا إلى ما لم يتوقع أحـدهم سماعـه يوما .

قال الكادر ان الصين راسخة كالجبل ، وكتاب واحد لن يهـز ربع سكان الكوكب ، لقد بلغوا سن الرشد الذى يسمح بـظهور أى رأى ، وتفتح كل زهرة ، ورؤ ية كل أشعة الشمس ، طلب منهم الرد على « تنج بنج » ، خرج المجتمعون وقلق فى دروب النفوس .

لوحظ فى الأيام التالية أن المقال الافتتاحى لجـريدة الكفـاح تضمن هجوما حادا على السياسة الزراعية ، فى اليـوم التالى نشـر مقال بتـوقيع « مراقب » جاء فيه : إن الجبل شامخ ، والرياح التى تهب لا تـزيده إلا رسوخا وما من شىء فوق الجبل إلا الجبل نفسه .

أحيانا يتمرد . يطرد أعتى الصخور إلى الوادى ، قال ماو يوما لندع مائة زهرة تتفتح ، وها هو الأوان الحقيقى لتفتح الازهار . » .

إن العبـارة الأخيرة قـطعت الشك بـاليقين ، ثمـة غبار يثـار حول الزعيم ، غيوم رمادية قاتمة ، الخطى تضطرب ، والايقاع يختل ، بعد وفاة ماو بدأت « الكفاح » تنشر حولها على هيئة غصنى زيتون « مؤ سس الصين الحديثة » ، ظن الجميع أن الصورة ستستمر إلى الأبد ، ولكنهـا اختفت ورحيل ماو لم يمض عليه إلا أربعة شهور ، فى نفس الوقت طبع « استرداد

الـوعى » بكميات كبيـرة . هدد الشبـان بحرق نسخـه ، رفض بـاعـة الصحف توزيعه ، قال أحدهم لمراسل الوكالة الفرنسية :

« لقد علمنى ماو ، أدخل ابنى الكلية العسكرية . وزاد حبات الأرز التى يأكلها أطفالى ، كيف أهاجمه بتوزيع هذا الكتاب ؟ » .

قيل للشبان ان التيار الكبير يبتلع خيوط الماء النحيلة ، والبحر يخفى عذوبة الأنهار ، ردوا على تنج بنج ، بعد أسابيع ظهر كتاب ألفه البعض ، أطلقوا عليه « الوعى الضائع » ، جاءوا بفقرات عديدة مجد فيها ماو . لقد رسمت صور كاريكاتورية لبنج ، صور يمشى عاريا فى الأسواق ، رسم على هيئة حرباء ، لكن ثمة مرارة ترسبت فى النفوس ، هل تجىء لحظة من الزمان يضطر فيها البعض إلى الدفاع عن ماو ؟ كما أبدى البعض أسفا على ما يصيب الإنسان من تغير وتدهور . يبدو أن رد الفعل بلغ من الحدة درجة أسكتت الأصوات التى حاولت مـد مظلة النقـد إلى شخص ماو . لكن الناس راحوا يرقبون بحذر ، ويقين خفى لديهم أن المسألة لم تنته عند هذا الحد ، مع صنمت الصحف بدأوا يرصدون عدة ظواهر كاختفاء صور ماو من مكاتب بعض الموظفين ، أصبح طبيعيا أن يسأل شخص ما . .

« هل رأيت صورة ماو عندما ذهبت لتقضى مصلحتك ؟ . . . »

علقت المرارة فى الأفواه ، هذا سؤال لم يتصور إنسان نطقه يوما . قال أحد عمال المناجم أنه برغم مضى شهور قليلة على رحيل ماو لكن عندما يذكر اسمه يخيل إليه إنه عاش فى حقبة بعيدة . . بعيدة جداً . بعض المعمرين قالوا ان الأيام تأتى بالعجب والحقل لا يستمر أخضر أبدا ، البحار يختلف عمقها من موضع إلى آخر ، والعلم الحديث يقول أن القارات الخمس تتحرك من أماكنها ، كما ان الماء لم يوجد على حالة واحدة ، هناك ماء البحر ، وماء النهر ، والماء الآسن ، والماء الراكد ، والماء الجارى ، والماء المتساقط مطرا ، وهكذا حال الزمن ، لقد لاحظ الناس عدم إذاعة صور ماو فى التليفزيون واختفاء صوته من الإذاعة ، أصبح العثور على اسطوانة تحمل إحدى خطبه كالعثور على زهرة الصقيع ، كما قل المعروض من الكتاب الأحمر ، وظهرت دعوى تقول بإتاحة الفرصة للأفكار الجديدة ، كما لاحظ القرويون أن الحراسة على الأماكن التاريخية التى عاش فيها الزعيم قد خفضت ثم اختفت ، أصبح أى إنسان يمكنه الدخول إليها ، كما أن الوفود الأجنبية لم تعد تأت لاختفاء الاماكن من برامج زياراتها ، ومع ضياع بعض الأدوات التى استخدمها ماو من هذه الأماكن قيل ان القرويين شكلوا حرسا ذاتيا منهم يبقى طوال الليالى إلى جوار المساكن والمكاتب والأكواخ والمواقع والخنادق التى عاش بها ماو ، ويدفعون اللصوص الذين بدأوا يظهرون أخيرا فى الريف الصينى . .

وأخفى الجميع أسى ، هل جاء الزمن الذى يضطرون فيه إلى حماية بقايا ماو بأنفسهم ، هل حل الوقت الذى يستنشقون فيه رائحة صورة لماو ، أو كلمة بصوته ؟

مع حصاد محصول القمح بدأزبد الموجة التالية للهجوم على ماو. فى مقال افتتاحى نشر بجريدة « الكفاح » قيل أن الثورة الثقافية بدت ضرورية وقت حدوثها لتجديد شباب البلاد ، ولكن ثمة تجاوزات وقعت ، وستنشر تحقيقات يومية حول هذه التجاوزات . .

أدى المقال إلى ظهور ملصقات جدارية تهاجم الاتجاهات الرجعية التى تتستر محاولة تشويه الثورة ، غير أن مجمع البلديات أصدر أمرا بمنع الكتابة على الجدران ؛ لابد من المحافظة على نظافة الجدران ، حرصا على رونق المدينة فى عيون الأجانب . .

فى اليوم الثانى نشر أول تحقيقات الكفاح عن السجون الجماعية التى أقيمت للمعارضين فى زمن الفترة الثقافية الأولى ، نشرت صور لزنازين لا تتسع إلا لعشرة أفراد وضع بها المئات لم يمكنهم النوم إلا بالتناوب بحيث يقف البعض وينام الآخرون ، نشرت صورة لعجوز صينى وتحتها تعليق « أصيب بالأرق لعدم تمكنه من النوم » ، صورة لرجل آخر شمر عن ساقه وتحتها :

« سلخوا جلد ساقه بعد أن رفض الكلام »

وصورة رجل آخر قصير بدين .

« بصقوا فى وجهه . وصفعوه على قفاه »

رجل آخر متوسط العمر :

« أحرقوا لحيته ، وشدوه من عضوه . . . »

لم تسكت جريدة الشعب الرسمية ، هاجمت هذه الحملات الصحفية ، قالت ان الرجعيين لو تمكنوا من البلاد لذبحوا ملايين الرؤوس ، وللثورة الثقافية انجازات يجب أن تذكر .

غير أن الفلاحين فى المناطق النائية والقريبة تأملوا ما يكتب ، ثم همس بعضهم ، هذه أدوار موزعة ، وتساءل البعض ، ألا يمكن منع « الكفاح »من نشر هذه التحقيقات ؟ وقال البعض ان هذا ممكن بالتليفون ، ورفع المسئولون شعار أن الصين راسخة وقوية ولن تهزها الحملات أو الشائعات وذكرى ماو فى القلوب ، رد الشباب فى التجمعات والمؤتمرات طبعوا المنشورات ، أبدى بعضهم ألما ، هاهم يعيشون الزمن الأسود الذى تلوث فيه ذكرى ماو . . قال البعض ، ليقدموا ما شاءوا لكن هناك أمرين لا يمكن أن يمس فيهما ماو ، هما المال والنساء .

فى الأيام التالية توقفت جريدة الأنباء وجريدة الكفاح ، ونشرت جريدة الشعب صورة كبيرة لماو ــ لأول مرة منذ مدة ــ وتحتها تعليق « لنتخذ القدوة والمثل منه » . لكن الريبة لم تفارق القلوب ، وتساءل البعض ، ترى ماذا يدبر هذا الزمن الذى قدر لنا أن نعيشه لماو ؟

بعد أربعة أيام أعلنت صحيفة إقليمية فى اقليم الغرب عن مفاجأة مذهلة ، نشرت صورة امرأة تجاوزت الاربعين ، أجرت الصحيفة حديثا مطولا معها ، قالت ان ماو تعرف إليها بعد وصول الشيوعيين إلى السلطة عام ١٩٤٩ ، أحبها وأحبته ، ثم عاشرها كالأزواج ، وأنجب منها ثلاثة أطفال ، وقالت انه كان يهوى الفتيات الصغيرات ، ولديها رسائل بخطه تثبت كل شىء ، إنها لا تطلب إلا أمرا واحدا هو إثبات نسب هؤلاء الأطفال إلى والدهم العظيم وأعلنت أنها ستسلم إلى السلطات مليون دولار احتجزها ماو لنفسه من أموال الثورة أثناء المسيرة الكبرى ، وأعطاها لها لتنفق منها على الأولاد ، ولكن ضميرها يؤنبها . . .

تناقلت الوكالات الخبر ، كتبت تعليقات عديدة أذيعت من كافة الإذاعات ، وأحرق أحد الشباب الذين ولدوا عام ١٩٤٩ نفسه احتجاجا على تلويث ماو ، وأكد رفاق ماو أنه لم يعرف هذه المرأة ولم يمض إلى هذه البلدة ، أما المليون دولار فأمر لا يستحق الرد ، وشكك أحدهم فى وجود المرأة نفسها .

وقال شاعر شاب قصيدة مطلعها :

أنعى إلى ذلك الزمان أهله . . . . .

وفى الريف بدا الفلاحون وكأنهم لا يصغون إلى ضجيج المدن الصغيرة والكبيرة ، رحلوا فرادى وجماعات لزيارة قبر ماو ، وذات يوم تعطلت سيارة تقل أحد الصحفيين الأجانب فى منطقة تقع بأقصى الجنوب الشاسع . وقف بعض الأطفال يرقبون بعيون ضيقة ودهشة ، بدا غريبا بحجمه الكبير ، ولون بشرته الأبيض ، جاء والدهم العجوز ، أشار المرافق إلى ظمأ الضيف الأجنبى ، دعاهم العجوز إلى دخول بيته ، تلفت المرافق حوله ، إنه منهك أيضاً ، اضطر الضيف إلى إحناء رأسه ، جلس فوق دكة من الطين تعلو فرنا باردا ، أبدى رغبة فى غسل وجهه ، دعاه العجوز إلى الداخل . قبل أن تقع عينا الضيف على الوعاء الفخارى القديم للماء ، حانت منه التفاتة إلى حجرة داخلية ، إن ثمة ضوءا ينبعث من شمعة غليظة يلمس صورة متوسطة لماو ، إحدى صوره الملتقطة فى الأربعينات أو الثلاثينات ، يبدو مبتسما ، مرتديا خوذة قتال ، عيناه متطلعتان إلى بعيد ، وكأنهما ترقبان من زمن آت . . .

أكتوبر ١٩٧٦

فى الخط

عقد الاجتماع فى القاعة الرئيسية ، بعد التصفيق الحاد ، وحرص كل شخص على الوقوف فى موضع بحيث يمكن ان يرى بوضوح لسيادته ، ثم تقدم أحد العاملين بإدارة الميزانية وهتف ثلاث مرات بحياة الخط ، وقف رئيس مجلس الادارة فشكر أبناء المؤسسة وأثنى عليهم ، قال إن القضية ستنظر بعد أسبوع ، وأن ابداء الآراء سيتم فى حرية تامة ، من الضرورى أن تضرب المؤسسة مثلا فى تمسكها بالخط ، بحيث تفرض احترامها على المستشارين ، وأعضاء لجان تقنين المعانى ، وخبراء الحيثيات .

أطرق مقدار لحظة ، ثم قال إن خط المؤسسة واضح وصريح ومتين . وإنه ملتزم بالخط فى أدق تفاصيل حياته ، ولعل البعض رأى مكتبه بعد إعادة تنسيقه وفقا للخط ، ولكنه يرى من واجبه تحذير العاملين من بعض الذين قد يتصلون بهم من خارج المؤسسة ويحاولون تشكيكهم .

وهنا حرص البعض على كتابة هذه الملاحظة مع أنه يمكن تذكرها بسهولة ، كما بذل آخرون جهدا للمبالغة فى إظهار الامتعاض على وجوههم كلى الشفاه أو مطها . وإصدار أصوات الاحتجاج ، أو التراجع

بالرأس احتجاجا ، أهذا معقول . . هل يمكن لقوة فى العالم أن تؤثر على أحدهم . .

بعد انتهاء الكلمة خرج رئيس مجلس الإدارة يتبعه (س) . إن نجم (س) يتألق فى مثل هذه الظروف لقدرته على متابعة التزام العاملين ، فى الممر اقترح رئيس القسم الداخلى أرسال برقية إلى مجلس الإدارة ، وهنا قال (ى) لنفسه ، ما الداعى إلى إرسال برقية والطابق المخصص لمجلس الإدارة على بعد درجات قليلة فى نفس المبنى ، إن المسافة حتى مكتب التلغراف بعيدة جدا ، مع ذلك لو طلب منه التوقيع على البرقية لن يرفض ، ربما ظنوه خارجا . .

فى نفس اللحظة التقى (س) بالسيدة (ك) وسألها ضاحكا عن ذهابها إلى كوافير غير ملتزم . أبدت انزعاجها ، وقالت إن هذه الوشايات الرخيصة ضدها لن تهدأ - إن زوجها يحتل منصبا حساسا ، وهذا يتطلب منها حماسا غير عادى ، وهنا تقدم (ى) بخطواته الهادئة ، رفع إصبعه مستأذنا ، تساءل عن عنوان الكوافير المناسب حتى يسمح لزوجته وابنته بالذهاب إليه ، قال (س) بدون النظر إلى (ى) إن العنوان سيعلق بلوحة الاعلانات غدا فى المدخل الرئيسى ، انحنى (ى) وانسحب بعيدا .

فى اليوم نفسه رصد عامل التحويلة عـدة مكالمات اشتبه فى عـدم التزامها بالخط ، قام العامل بإبلاغ نصوصها إلى (س) ، كما قدم تقريراً عن العاملين الذين تحدثوا وذكر الخط صراحة فى مكالماتهم واعلنوا إلتزامهم به ، كما قدم تقريراً عن مدى حماس كل منهم عند ذكر أى كلمات تتعلق بالخط ، قال ان التليفون مرشح جيد لـلأصوات ويكشف أى مهـتز أو خائن ، كما اتصل متعهد البوفيه بالسيد (س) وأخبره بالتزامه فيما يقدم من مشروبات إلى العاملين ، قال انه طلب من شركة الخزف المتحدة تصميم فناجين وطقـاطيق تحمل كـل منهما مقتـطفات مؤ يـدة ، وترددت أخبـار وأقاويل عما سيتحقق للمخلصين بعد نظر القضية ، ستنظم الرحلات إلى الخارج ، ستوزع الدواجن المذبوحة أسبوعيا بالأسعار الرسمية ، كذلك الكبد والقوانص ، والأسماك من جميع الأنواع الاستهلاكيـة ، وسيشيد جراج فسيح فوق قطعـة الأرض الفضاء ، وستـذاع أسماء الملتـزمين فى برنامج ما يطلبه المستمعون ، وسيتم تخصيص باب جانبى لدخولهم إلى حديقة الحيوانات فى الأعياد والمواسم ، كما سيبيع إليهم الخيـار والملوخية الخضراء عند أول ظهورها بنفس السعر الذى يباعان به فى نهاية الموسم .

فى الثانية حدث ما عكر (س) أخبره رئيس مجلس الادارة أن أمرا مزعجا حدث ، خرج (ى) عن الخط ، وقف على ناصيـة شارع فـرعى قريب وخاطب أحد إعلانات السينما قائلا انه من المصلحة ارتفاع صوت مغاير

عند نظر القضية ، قال سيادته إن كل التقارير تؤكد إخلاص (ى) والتزامه منذ إنشاء المؤسسة ، كما إنه كان يوقع شهريا فى كشف المرتبات مؤيدا ، يجب كشف حقيقة ما جرى ، هل تعرض (ى) لمؤثرات صادرة عن قلة منحرفة ؟ طالب سيادته بالتزام الحذر ، وبسرعة معالجة الموقف ، وعلى الرغم من تكتم النبأ الا أنه عرف بين العاملين . .

قالت السيدة (ك) لزميلتها إن زوجها من خلال عمله الحساس يمكنه معرفة ما يدور فى المؤسسة ، أخبرها أن البعص يبطن ما لا يظهر ، وإن اجتماعا جرى ليلة أمس فى بيت رئيس مجلس الإدارة ضم رؤساء الأقسام ، والأمناء ، وأقسموا على الوقوف يدا واحدة . .

أبدى (ى) دهشة ، كيف يمكن اعتباره خارجا ؟ لقد خدم المؤسسة سنوات طويلة ، ولو طلب الآن إحالته إلى المعاش لتقاضى مستحقاته كاملة ، ثم أنه يربى ولدا وبنتا ، من أجلهما لا يؤمن إلا بما تجمع عليه الأغلبية ، كما أنه ألحقهما بمدرسة يتم فيها تشربهما للخط ، بعد حوار قصير أبدى (س) الرضا ، قال أن (ى) ابن حقيقى للمؤسسة ، هنا وقف (ى) أعلن أنه على استعداد لتوقيع إقرار كتابى من أصل وصورتين يثبت ايمانه ، وعلى استعداد لتوقيع إقرار كتابى من أصل وصورتين يثبت إيمانه ، على استعداد لاقتراض مبلغ من مرتبه لينشر فى الصحف إعلانا أو تهنئة ، مد

(س) يده مهنئا مصافحا ، سينقل كل كلمة ، سيعمل من جانبه على إزالة سوء الفهم ، ولا شك أن هذا الموقف سيصبح محل اعتبار عند نظر العلاوات الاختيارية التى يمنحها سيادته بعيدا عن اللائحة ، أكد (ى) أنه لا يمكن أن يفكر أبدا فى تعطيل المسيرة ، انصرف (ى) نظر إليه البعض ، كيف يخرج إنسان مثلهم عن الخط ؟ كيف يعرض نفسه لاحتمال الفصل ؟ لعدم صعوده إلى الخزانة أول كل شهر ، ألا يفكر فى أولاده ؟ لماذا تزوج وربط إليه مصير إحدى بنات الناس ، كيف فكر فى الزواج من ينوى الخروج عن الخط ؟ وإذا حدث وقبلته إحدى المختلات فكيف أنجبا ؟ هل ينجب من يخرج عن الخط ؟ عجيب والله ! .

فى اليوم التالى ارتجف (س) حنقا وغيظا بعد قيامه بالتمام اليومى للتأكد من التزام العاملين ، جاء (ى) فى ساعة مبكرة ، بدا مترنحا لا يقدر على الوقوف تحدث إلى عمال النظافة الذين يغسلون سلالم المؤسسة بالصابون وينفضون الغبار عن المكاتب .

قال إنهم سيفهمون ، سيصغون إليه لأن كل منهم يبطن غير ما يعلن ، وهو أيضا جبان ، « نعم .. أنا جبان ... بالأمس أرسلت برقية لا أعنى ما قلته بها » إن كل ما يجرى يجثم عليه ، مقزز ، منفر ، إنه يفكر

فى الهجرة ، لقد خطا فى سبيل ذلك خطوة عملية ، اشترى استمارات استخراج جواز السفر فى غفلة من الأعين ، دس يده فى جيبه الأيمن ، أطرق ، فتش جيبه الايسر ، مط شفتيه ، قال انه سيبوح بالحقيقة ، لم يشتر الاستمارات ، خاف ، لكن لَمّ يحزنه ، ما يفكر فى الخروج ، لم يفكر فى مفارقة هذه البلاد الغالية عليه مثل الولد ، قضى عمره فى الحى القديم ، يتغذى وينمو من هوائه ، وترابه وينتشى عند مفارق طرقاته ، ويأنس إلى مقاهيه ، وتتكىء ذكريات عمره على شرفات بيوته ، لكنه يضيق الآن ، لماذا يجبرونه ؟ لماذا يضغطون على عنقه ؟ لماذا يحددون كمية الهواء المتدفق إلى رئتيه والدم الذى يضخه قلبه ؟ لماذا لا يقول رأيه منفردا عند نظر القضية ؟ بدا حزينا ، منكسرا ، مضى مترنحا إلى مكتبة ، عقد يديه فوق اللوح الزجاجى ، راح فى نوم لم يوقظه منه إلا زميله ، تلفت حوله ، خجلا بينها المرئيات تهتز وتختلط ، دخل دورة المياه المخصصة للرجال ، غسل وجهه ، جففه بمنديله ، عاد مبتسما ، تساءل ــ « ما أخبار الخط » ؟

ضاق صدر (س) . الأمر خطير ، ربما تضمن ملعوبا خفيا أعده الخارجون ، ربما عبثوا بعقل (ى) ، ربما غسلوا مخه فى الليل ، أرجأ أمر (ى) حتى منتصف النهار ، بعد نصف ساعة تناثرت إشاعات عديدة ، بصيغ مختلفة ، قيل إن (ى) فاسق عجوز ، اغتصب فى شبابه فتاة يتيمة ،

وإنه ابن عائلة فقيرة ، أبوه عمل فى تسليك مجارى العاصمة ، كما أنه عمل فى صباه مبيضا للنحاس قبل انتشار الالومنيوم وانقراض هذه المهنة ، إنه يضرب امرأته ، كما شوهدت ابنته تتحدث إلى بائع بمكتبة تبيع المجلات الأجنبية . .

قال (س) . .
إنك فى موقف لا تحسد عليه . .

ارتعد (ى) بأسره ، قال انه سيرد على من يدسون له ، أنه قادر على منازلتهم والتصدى لهم ، سيتخذ عدة اجراءات علنية أولية تثبت إخلاصه ، سيطبع بطاقات خاصة ، سيكتب تحت اسمه عبارة « مؤمن بالخط » ، كما سيضيفها إلى اللافتة الخشبية البيضاوية المعلقة إلى باب بيته ، سيكتب على جدران المدينة « عاش الخط » ، سيحد من استهلاك المياه طبقا لآخر التوجهات .

غير أن رئيس مجلس الادارة لم يقتنع ، اتهم (س) بعجزه عن جمع المعلومات ، لقد حدث تطور لم يلحظه قسم متابعة العاملين ، بدأ (ى) العاقل ، المتزن ، التردد على محال شرب الكيف ، فى الأسبوع الأخير بدأ يشرب فى البيت قبيل شروق الشمس ، قبل تغير طعم ريقه ، وعندما يبدأ مغيب وعيه ، يخرج البطاقة التى صرفت له أخيرا والدالة على التزامه ،

يضعها أمامه ويبدأ لفظ كلمات السباب ، وليلة أول أمس وقف أمام التمثال التاريخى بالميدان الرئيسى ، وقال بصوت عال إنه لم يذق الخمر أبدا ، لكنه اضطر بسبب هذا الخط اللعين ، ثم خفض صوته وقال باكيا فى محاولة مكشوفة لاستدرار العطف ، تساءل ــ هل يدرى الناس كم مرة ردد عبارات التأييد ؟ كم مرة حفظ فيها مقالات الصحف المؤيدة ، ودرءا لأى شبهات ، كم توقيع خطه على لافتة تحمل عبارات من الخط ، كم مرة حرص على إبراز تعبيرات وجهه الموالية فى أحاديثه إلى العاملين من زملائه ليثبت وليشيع عنه أنه أكثر إخلاصا ، سكت ثم زعق بأنه لن يقبل التعامل مع المتاجر التى حددها الخط ، ولن يرتدى الأزياء المطابقة للخط .

قال سيادته ، لابد من إحكام الرقابة على (ى) وإلا حدثت فضيحة يوم نظر القضية . .

اقترح (س) إرهاق (ى) بمزيد من الأعمال الإضافية حتى لا يجد الوقت الكافى للشرب ، لكن سيادته استبعد ذلك ، ربما لجأ إلى الشرب فى المؤسسة ، كما لا يمكنه الغاء تغيير النظم خاصة وأن المؤسسة تفخر بالغاء نظام التوقيع لاثبات الحضور والانصراف ، اقترح إيفاد (ى) إلى إحدى المحافظات النائية فى مهمة ، اعترض سيادته ، ربما فقد وعيه ، عندئذ يصطاده أحد مندوبى الوكالات الاجنبية الاخبارية الذين يترددون على تلك المحافظات لزيارة الآثار .

اقترح (س) تلفيق تهمة ، كدس قطعة مخدرات فى مكتبه .

قال سيادته إن تلك الاساليب البالية استخدمت فى السبعينات .

أطرق ، ثم راح ، وجاء ، قال انه من المهم إحكام الرقابة عليه خاصة يوم نظر القضية ، وإرهابه فى الأيام السابقة على ذلك ، إنه حل صعب لكنه الممكن الآن، وبعد نظر القضية ستتخذ الاجراءات المناسبة . .

فى الصباح التالى تنبأت السيدة (ك) بأن خطوات حاسمة ستتم تجاه من يشتبه فى عدم إخلاصهم التام ، علم زوجها بذلك من خلال موقعها الحساس .

عند الانصراف نزل (ى) السلم متزنا ، متمهلا ، عد الدرجات التى تصل الطابق الثانى بالطابق الثالث ، قال لنفسه ، ألا توجد حياة غير الحياة ؟ أهذا هو الشكل الوحيد المتاح ؟ . توقف عند الباب ليفسح الطريق أمام السيدة (ك) ، أو مأت إليه بخير ، أسرعت غير أنه مشى محاذيا لها ، وقال إن العقاب يجب أن يحل . . ، تساءلت (ك) بدهشة ، ضد من ؟ قال ، ضد المخالفين طبعا . . ، أخفت دهشة لأنها سمعت بوقوفه فى أحد الميادين ضاحكا وباكيا ثم صائحا يلعن الخط . استمر (ى) فى سيره حتى التقى برئيس قسم الاستماع فوق رصيف المترو ، قال انه سيسعى من خلال أصدقائه الفنانين الذين يعرفهم من المقهى إلى تأليف أغنية ، وطبع

كتيب يضم لوحات مؤيدة ، فى المترو التقى برئيس شئون العاملين ، طلب منه ايضاحا ، لو أرسل برقية يستنكر فيها أى تشكيك ، هل سيضم إلى ملف خدمته الرسمى ؟ ثم أبدى ضحكة حاول تثبيتها إلى وجهه أطول مدة ممكنة ليرى محدثه اقتناعه ، فى المساء نزل مرتديا ملابسه الكاملة ، اتصل تليفونيا بمنزل (س) اقترح عليه جمع مبلغ صغير من كل فرد لإقامة حفل شاى يعبر عن وحدة العاملين وعدم خروج أحدهم من الحظيرة التى تضم الكل ، شكره (س) على هذه الروح ، طلب منه الحضور غدا فى وقت مبكر لتكليفه بمهام خاصة تسبق الاجتماع المقرر عقده أثناء وقوف (ى) حرص على الحديث بصوت مرتبك ليسمعه الواقفون حوله فى انتظار انتهائه من المكالمة ليتحدثوا فى التليفون ، ربما أصغى إليه أحدهم عامدا لينقل عنه ، وعند الناصية داهمه حزن ، وتساءل بأسى ، أين البهجة ؟ ألا يمكن له أن ، يمشى ، يمشى وتتغير المرئيات باستمرار ، لا تقع العين على شىء واحد مرتين ؟ يضحك متى جاءته الرغبة فى الضحك ، ويقول ما يخطر له من كلمات ، بدون أن يقصد إرضاء محدثه ، أو الحرص على توصيل معنى ، ألا يمكن أن يتوقف عندما يرغب ، ويجلس عندما يشعر بالرغبة فى الجلوس ، طافت عيناه بالفتارين المضاءة بوهن ، وزحام المارة فوق الرصيف ، حركة السيقان الآلية التى تدفع بالأجسام إلى الأمام ، ألا يمكن استبدال الحركة إلى الوراء بدون أن يجيىء الدوار ، فوق المدينة خيمت

العتمة ، لماذا تبدو السماء سوداء فى الليل ؟ توقف ، نظر حوله ، ثم خلفه ، أين توارت البهجة ؟ . .

فى الصباح التالى جرى الإعداد للاجتماع بعناية ، تم تجميع عدد من المقاعد يوازى العاملين ، جرى التصفيق وفقا للاصول المرعية ، قام سيادته ، فى البداية تقدم على مرأى من العاملين كلهم ، قام باخماد بعض الاشاعات التى ترددت ، أخفى (س) قلقا ، لم يظهر (ى) حتى الآن ، أبلغ الحرس بضرورة احتجازه إذا ظهر فى حالة سيئة .

أكد سيادته سلامة الخط ، يسره التكاتف الواضح ، قال إن إجراءات حازمة ستتخذ حتى لا يتخلف أحد العاملين عن الحضور ، تم تقسيم المدينة إلى دوائر ومربعات ، ستمر السيارات على العاملين ، عمال التحويلة سيوقظون من لديهم تليفونات مع أول ضوء ، من لا يمتلكون تليفونات سيذهب إليهم النوبتجية ، أعلن أن عددا من العاملين الأصليين المعارين إلى البلاد المجاورة أرسلوا برقيات يعلنون تأييدهم ، كما أن بعضهم سيصل الليلة لحضور نظر القضية وهكذا يقف الجميع يدا واحدة ، لا يشذ منهم أحد .

فى هذه اللحظة تقدم أحد السعاة من (س) ، مال هامسا ، عض (س) شفته السفلى ، أهذا ما حدث إذن ؟ . .

خرج (ى) صباح اليوم من باب بيته منحنيا ، يكاد رأسه أن يلامس لأرض ، نـزل من فـوق الـرصيف إلى الـطريق ، حوله صبـاح رمادى مشبـع بدخان سيارات ، وضباب مجهول المصدر وضجيج ، أطل سائق نقل لف رأسه بغطاء من الصوف ، سب بصوت عال ، اضطر إلى التوقف فجأة ، بدا (ى) غير مصغ ، استمر فى رسم خط أبيض واضـح فوق الأرض مستعملا قطعة ضخمة من الطباشير وبداخل حلقه غصة وعلى مشارف عينيه دموع ، ألقت سيدة من نافذة سيارتها منديلا ورقيا تمخطت فيه ، صاحت غاضبـة ، أصوات احتجـاج ، اضطرب المـرور ، قهقه شبـان يتعلقـون بسلم أتوبيس ، اتسعت عيـون من الدهشـة ، استقام (ى) واقفا ، على مهل رفع ساقه اليمنى ، بحذر أنزلها حتى لا مس طرف قدمه الخط الأبيض ، رفع اليسرى ارتجفت قليلا قبل أن تلامس الأرض ، بدا وكأنه يمشى فوق حبل معلق ، توقف لحظة ليحفظ توازنه وحتى لا يحيد ، شفتاه منفرجتان وعيناه معلقتان إلى الفراغ الرمادى . . .

أبريل ١٩٧٧

الثلاثون .. من فبراير

حوار ـ ١ ـ

امرأتان ، تقفان فوق سطح أحد البيوت بالحى القديم ، الأولى بدينة قصيرة تقوم بجمع الغسيل ، والثانية بدينة طويلة تحمل طفلها فوق ذراعها ، صعدت به إلى السطح لتعرضه للهواء بعد أن ذبلت عيناه وجف عوده فى المندرة المظلمة تحت السلم . . قالت المرأة الثانية . .

ـ يقولون انهم سيجعلون تذكرة الأوتوبيس بتعريفة . .

قالت الأولى :

ـ ربنا يصلح الأحوال . .

قالت الثانية :

ـ أكد لى زوجى بعد أن سمع نشرة الأخبار عند الحلاق أنهم سيصرفون الدواء مجانا .

تنهدت المرأة الأولى :

ـ ربنا يصلح الأحوال . .

حوار ـ ٢ ـ

فى نقابة المدافعين عن الحقوق الإنسانية ، دخل إلى الغرفة عضو مجلس الادارة النحيل ، حمل معطفه ، فوق ذراعه ، يمسك بين أصابعه سيجاراً ضخما ، صاح المجتمعون انهم بحثوا عنه ثلاث ساعات . قال بهدوء :

ـ إخوانى ، يجب أن نرفع برقية تأييد الآن . .

ساد صمت ، فكر شاب من الحاضرين ، ما دام اقترح ذلك فلا بد أن الأمور استتبت . .

منظر

مدخل المدينة الرئيسى ، طابور من عربات النقل الضخمة ، تحمل كل منها عشرات الأشخاص ، تم حشدهم عندما دقت الثانية ظهرا بعد أن خطب فيهم المديرون ، وتم توزيع ثلاث ساندويتشات على كل منهم ، جبن أبيض ، وجبن رومى ، ومبلغ خمسة وعشرين قرشا لكل منهم كمصروف جيب ، فى الطريق ظهرت لافتات من القماش ، وسعف نخيل ، ودقات طبول ، وزغاريد نسائية ، ورقص البعض . .

ـ بالروح . . بالدم . . نفديك يا فبراير . .

جزء من مقال افتتاحى :

. . . هكذا كان من المحتم أن يظهر الثلاثون من فبراير إلى مسرح تاريخنا المعاصر ، لقد جاء لتبدأ المسيرة ، ولتتحقق المكاسب ، إن روح الثلاثين من فبراير يجب أن تسود كل المواقع . . . » .

قرار :

ننهى إلى جماهير أمتنا العظيمة ما يلى :

تقرر اعتبار الثلاثين من فبراير يوم أجازة رسمية .

برقية :

العاملون بالدوائر الثابتة يحيون الخطوة المباركة بجعل يوم الثلاثين من فبراير إجازة رسمية .

تعديل :

فى القاعة الملحقة بالمكتب الرئيسى ، قال رئيس الخبراء . . .

ــ قبل بدء المناقشة اقترح ارسال برقية نعلن فيها وقوفنا صفا واحدا . .

صفق الحاضرون علامة الموافقة الجماعية . . ثم تحدث أستاذ التاريخ الحى . .

ـ آن الأوان لتصحيح بعض المفاهيم الخاطئة التى قد تضر بالجيل الجديد ، لا شك أننا نتفق على وجود جذور الثلاثين من فبراير فى تاريخ أمتنا ، ربما يسألنى البعض ، ماذا تقصد ؟ أقول ببساطة إن هذا التاريخ المجيد يجسد روح شعبنا الأصيلة الموغلة فى أعماق التاريخ . إذن يجب أن يتضح هذا التاريخ العظيم فى كل مراحلنا حتى تلك السابقة عليه ، نعم ، . . يجب تعديل كل ما دون من قبل .

برق الزجاج الذى يغطى منضدة الاجتماع عندما أضيئت المصابيح المثبتة فى الزوايا ، دون البعض ملاحظات قصيرة ، أومأ أستاذ أصلع يرتدى نظارة طبية إطارها من المعدن الأبيض النحيل ، قال . .

إن المهام الملقاه على عاتقنا أكثر من أن نتصورها . .

صحح رئيس اللجنة العبارة قائلا . .

ـ أثقل يا سيدى . . أثقل . .

حديث فى الصفحة الأدبية :

« . . يتساءل القراء ، أين أدب الثلاثين من فبراير ؟ أجاب أديب العاصمة الأول :

ـ لا شك أن ما جرى ستكون لـه آثار بعيـدة المدى ، لكن الأدب يستوعب ا لاحداث على مهل .

أما أديب المحافظات الشمالية المعتمدة فقد أجاب :

ـ إن هذا الادب سيظهر من هنا ، لعمق التحولات التى سيبدو أثرها بلا شك خلال الفترة المقبلة . .

غير أن وزير الشؤ ون التموينية الثقافية قال . .

ـ إن كتابنا لا يواكبون المسيرة ، إنهم أسرى أبراجهم العاجية ، إن ما عرف عنى عدم كتابة القصة أو الدعاية ، لكن ما جرى ، فى فبراير فجر لدى ينابيع الخلق ، أعلن أننى سأنتهى من كتابة أول ثلاثية تجسد روح الثلاثين من فبراير .

خبر أدبى :

صرح وكيل أول وزارة الشؤ ون التموينية الثقافية أنه انتهى فعلا من كتابة رواية ثنائية ، « من جزئين » . كذلك علم مندوبنا الثقافى أن مدير التقنيات الفنية انتهى من كتابة رواية تقع فى جزء واحد وتتناول الظروف السيئة التى عانى منها شعبنا قبل بدء المسيرة . .

رسائل القراء :

« لماذا لا نغير اسم العاصمة ، ونطلق عليها الثلاثين من فبراير ؟ »

« عبده اليمانى »

يجب اقصاء المعارضين سرا للثلاثين من فبراير ، ثم تجريسهم علنا فى الشوارع » .

« محمود القطرانى »

« المتآمرون يعبثون فى الظلام ، انتبهوا » .

« فتحى القاونجى »

« أنجبت ابنا ، أسميتُهُ (الثلاثين من فبراير) ، وطفلة أطلقت عليها (مسيرة) » . .

« الصاوى با عيسى »

إعتقال :

فى الفجر اندفق الدم بسرعة من قلب المواطن جلال الرويس وسرى فى عاموده الفقرى ساخنا ؟ من عبر الغرفة إلى الصالة حافيا ، خلفه زوجته منفوشة الشعر ، ترتدى قميص نومها القصير . .

ـ افتح باسم الثلاثين من فبراير . .

اندفع المخبرون الثلاثة ، وقف الضابط شاهراً مسدسه ، بكت الزوجة ، قالت عندما ألقى المخبرون بمجموعة من الروايات الأدبية تحت قدمى الضابط . .

ـ إن زوجى من المخلصين للثلاثين من فبراير . .

جزء من الجريدة الناطقة :

المنظر : ماكينات نسيج ، عامل يراقب الخيوط التى تهتز برتابة ، يمد يده ، ليعدل وضع المكوك .

صوت من خارج الكادر : وبعد الثلاثين من فبراير قلت نسبة الاخطاء فى النسيج . .

تصريح لرئيس شركة المعلبات :

« أمكن إنتاج وجبة غذائية جاهزة بفضل الروح الخلاقة للثلاثين من فبراير ، تحتوى العلبة الواحدة على مائتين وخمسين جراما من اللحم ، وثلاثمائة جرام خضراوات مشكل . . »

بيان هام :

« . . منذ بدء المسيرة والقوى المعادية تحيك المؤامرات ، استطاعت النفاذ إلى بعض ذوى النفوس الضعيفة ، لقد تم كشفهم وتطهير الصفوف من الزمرة المتآمرة » .

صورة بثتها وكالة الأنباء :

« الصورة ملتقطة من أعلى مبنى بالميدان الرئيسى ، آلاف الرؤوس الصغيرة ، أيدى تلوح ، أعلام ، لافتات ، تعليق : الجماهير تدين الزمرة العميلة » . .

إعلان :

« العاملون بشركة التنمية يقفون وراء القيادة المخلصة ، ويهنئون بالقضاء على الزمرة » .

بيان هام :

يا جماهير أمتنا العظيمة ، ما أجمل وحدة الصف ، ما أعظم التسامح ، إن المسامح كريم دائما ، إن الزمرة لم تعد متآمرة ، لقد عادت إلى الحظيرة . .

مشهد انتخابي :

بعد بدء الاجتماع ، واكتمال النصاب القانوني لأعضاء النقابة المهنية ، وقف أحد الأعضاء ، يرتدى حلة كاملة ، يبدو واضحا رثاثة قميصه من الخط الرمادي المحاذى لحافة الياقة والذى تكون نتيجة للعرق المستمر واختلاطه بذرات غبار ناعمة تلتصق بالبشرة التى بدت غامقة عند الرقبة ، وقف منفرج الساقين ، اتسعت عيناه ، أشار إلى أربعة يجلسون فى الصف الثالث ، زأر صارخا . .

ـ اكتشفوهم . . اتخذوا ضدهم الاجراءات . . أرادو أن يؤثروا على . . برقت عيناه ، دار حوله بنظراته ، ارتفع كتفه الأيمن أثناء الحديث ثم انخفض ليرتفع كتفه الأيسر . .

أرادوا تشكيكى . .

سطر من تذكرة سينما :

تضاف خمسة مليمات إلى ثمن التذكرة تخصص لحصيلة صندوق احتفالات الثلاثين من فبراير . .

من وصف مباراة لكرة القدم :

الصحف تشتعل فى المدرجات ، الحمام يطلق فى الهواء ، جنود قوات الأمن يصطفون ، الفرقة الموسيقية تتقدم إلى منتصف الملعب ، سيداتى

سـادتى ، هذا يـوم جديـد يضاف إلى انتصـاراتنـا ، لقـد ارتفعت كـل الرؤوس .

بيان تاريخى :

« يا جماهيرنا العظيمة التى خرجت اليوم عن بكرة أبيها معبـرة عن فرحتها بالخلاص من الكابوس ، الظلام الذى بدأ فى الثلاثين من فبراير ، الظلم الذى تحكم فى مقدراتنا ، لقد بدأ التاريخ لأمتنا اليوم والموافق . . .

مقتطف من مقال افتتاحى :

إن التـركة الثقيلة التى لـدينا الآن تحتم بـذل المزيـد من الجهـود ، والتصدى بكل حسم لمن يريد تعطيل المسيرة ، تلك المسيرة التى تعطلت منذ الثلاثين من فبراير . . . » .

حوار ـ ٣ ـ

أمام غرفتهـا جلست تشم الهواء وتمـلأ عينيها بـالضوء ، احتضنت طفلها الذى يقترب الآن من عامه الثالث ، لم ينتصب واقفا على سـاقيه بعد ، من يَرَهُ لا يقدر عمره بأكثر من خمسة شهور ، شعر الرأس خفيف ، العينان عجوزتان ، الرقبـة نحيلة ، نظرت أمـه إلى جارتهـا التى تسكن الطابق العلوى ، وقفت تحمل سلة بها قرطاس ملىء بالطماطم الطرية ،

وعيدان جرجير ، ولفافة ورق صغيرة ، قالت . .

ــ تقعدين والدنيا مقلوبة فى الشوارع والميادين . .

ــ أخيرا ؟

ــ الهتاف للسماء . . والعربات محملة بالجدعان . .

رفعت طفلها ، ربتت ظهره بيدها .

ــ يقولون انهم سيجعلون تذكرة الأوتوبيس بقرشين . .

قالت الجارة وهى تلملم طرف ملاءتها . .

ــ ربنا يصلح الأحوال . .

مايو ١٩٧٧

كريستال

. . فى صالة السفر بمطار العاصمة البعيدة ، مال الموظف الكبير على زميله هامساً بأنهما عضوان فى الوفد الرسمى ، وان حقائبهما لن تفتح فى الجمرك . هذا يعنى خروجهما بما اشترياه من كريستال بدون دفع أى رسوم ، الكريستال من المنتجات النادرة ، ولا يسمح بالخروج به الا بعد دفع الضريبة الجمركية بالدولار ، هز الموظف الكبير الثانى رأسه ، انبسطت ملامحه لأن حقائبه لن تفتح فى الجمرك . .

فى الطريق المحاذى للبحر اقترب رجل يرتدى جلبابا من شاب وفتاة ، فجأة فتح لفافة من ورق الصحف ، برق الضوء وتناثر فى شظايا رفيعة سريعة من خلال النتوءات والمضلعات والمثلثات والزوايا .

ــ كريستال . .

هز الشاب رأسه ، ابتعد الرجل .

هل تعتقد أننا سنعيش إلى اليوم الذى نقتنى فيه قطعة كهذه ؟

ضحك الشاب . .

ــ أولا يجب أن نجد البيت الذى سنضع فيه الكريستال . .

برقت آلات التصوير ، وشرع الصحفيون أقلامهم ، واتخذ الوزير المسئول أفضل وضع ممكن للتصوير ، ثم بدأ يرد على الاستجواب المقدم من أحد أعضاء البرلمان . .

ــ طال الحرمان طال ، وحان الوقت لنقول كفى . . كفى للحرمان ، كفى للانغلاق .

أتعهد فى نطاق اختصاصى باغراق السوق بالكريستال . . وليخرس المتقولون . . وليصمت المشوشون . .

فى السادسة والربع تحدث رئيس مجلس الاستيراد فى التليفون .

ــ عندى أخبار عظيمة

ــ خير . .

ــ شوف يا سيدى . . بعد جهود كبيرة استوردنا أول صفقة . .

ــ لا . . لا . . غير معقول . .

ــ صدقنى . . أول صفقة كريستال تدخل البلاد .

ــ هل ستعلنون عنها . . ؟

ــ ولماذا نكلف أنفسنا وندفع أجور الاعلانات ، عشاق الكريستال

سيشمون رائحته . . اتصلت بك لتحجز ما تريد . . تعال عندنا لترى الكتالوجات . .

فى كابينة مساعد القطار ، جلس الكمسارى يتحدث إلى صديقه الذى لمحه فوق الرصيف فدعاه إلى الركوب بعيدا عن الزحام ، قال الكمسارى ان الله وفقه تماما مع زوجته الثانية ، الخير تدفق اليه مع ظهورها فى حياته ، انه الآن يتقاضى مرتبا أساسيا قدره ثلاثون جنيها ، ويحصل على عشرين أخرى نظير مكافآت التطويق التى تجىء نتيجة لركوب الكثيرين بدون قطع التذكرة من المحطة ، وبعد هذه السنين من الزواج تمكن أن يكون نفسه ، فلديه الآن ثلاث حجرات ، وعنده بوتجاز ، وثلاجة صغيرة تزين البيت ، صمت لحظات ثم قال انه طالما يعيش مع امرأته الثانية هذه فسيحصل على تلك القطعة ، سيتمكن من شرائها يوما . . وفى مكتب باحدى الادارات الخاصة ، قال الرجل صاحب المسئولية لأحد أصحابه : الحمد لله ، أنا وصلت ، غيرى تخرج بعدى بسنوات ، ولم يصل بعد ، أنا الآن فى حجرة خاصة بى ، عندى تليفون مباشر ، ومروحة ، ولدى ساعى ، حتى الكريستال تجده فى بيتى . .

. . فى المذياع الداخلى أعلنت المضيفة الأرضية عن وصول الطائرة التى كان من المفروض أن تصل فى السابعة صباحا ، وعندما فتح الباب

كانت السيدة التى ترتدى فستانا أزرقَ أول من ينزل السلم ، انها مشغولة بعدة أمور ، جاءت معها بالعديد من الهدايا الصغيرة ، وآنية كريستال واحدة ، كريستال أزرق مشوب بخضرة مثبت إلى قاعدة من سن الفيل ، ستمضى غدا إلى رئيس الهيئة ، عندما تراه ستلقى بما لديها فى تلك النظرة ، لن تطلب ما جاءت من أجله ، تعرف اللحظة التى ستقدم فيها علبة القطيفة الحمراء الضخمة التى تضم آنية الكريستال المخروطية الشكل ، عندما تلين ملامحه ، وترتخى شفتاه وتتلاحق أنفاسه ، ويبدو فرحا بجسدها العارى ، فى اليوم الرابع أو الخامس ستمضى الى الهيئة لتطمئن الى صدور قرار بمد عمل زوجها كملحق بالسفارة لمدة عامين آخرين فى عاصمة تلك الدولة المشهورة بانتاج الكريستال الملون ، سيرسلان المزيد منه ، سيمتلىء المتجر بأندر الأنواع سيزداد رصيدهما ، وعندما يعودان يوما سيجدان ثروة تؤمنها ضد أخطار الزمن . .

وخبط المحامى فى قاعة المحكمة الخاصة المنضدة بقبضة يده ، ثم أشار الى المتهم . .

ــ كيف يتهم موكلى باعتناق الأفكار الهدامة ولديه مجموعة من أندر أنواع الكريستال . .

ـ وفى تمام الساعة الثانية وصل الزوج من سفر طويل وفى صالة البيت ، بعد العناق ، وأشواق التلاقى بدأ يفتح الحقائب ، أبدت زوجته تهللا بالفساتين الجاهزة ، وقماش الحرير الطبيعى ، وقالت انه لم ينزل الى السوق بعد ، وتأملت لوحات الخشب المحفور ، وأساور زينة من العاج ، وعندما أصبحت الحقائب فارغة تماما ابتسمت بإيجاز ، قالت انها ستدخل الى حجرة النوم لتحضر شيئا من الداخل ، جلست ، فوق المقعد المواجه للمرآة ، دار ابهاميها حول بعضهما عضت شفتها ، لم يفكر فى احضار قطعة كريستال واحدة . . ماذا تقول لأمها ، ماذا تقول لصويحباتها . .

بعد خروج المريض قرر الطبيب النفسى أن يخلو إلى نفسه لمدة أربع دقائق قبل أن يسمع المريض التالى ، نفث دخان سيجارة ، لكم تتواضع آمال الانسان ، عندما جاءه هذا المريض منذ عام كان أبرز آماله امتلاك نجفة من الكريستال ، ومع وطأة المرض ، وتوالى الأيام ، راح طموحه يخبو شيئا فشيئا ، حتى ان الطبيب سأله منذ لحظات عن منفضة السجائر التى رغب فى شرائها بدلا من النجفة ، فقال بمرارة ، وماذا يعنى الكريستال بالنسبة لى ؟

وفى اللجنة التى عقدت لمناقشة البند التاسع ، أبدى البعض تحفظا حول النية المتجهة إلى تخصيص جزء كبير من الاعتماد لاستيراد أنواع

متقدمة تكنولوجيا من الكريستال ، قال أستاذ جامعى سابق وهو الآن خبير استشارى ان المواد الغذائية يجب أن تحظى بالأولوية ، اعترض أكثر من عضو قالوا ان التركيز على استيراد المواد الغذائية من الخارج يظهر الشعب كأنه جائع ، وبطنه لا تمتلىء أبدا ، ان هذا يهز ثقة رجال الأعمال والمستثمرين الأجانب فى متانة الاقتصاد القومى ، ان استيراد هذه الكمية من الكريستال النادر سوف توحى للمراكز المالية المختلفة برسوخ حسابات الموازنة العامة وضيق بند الصرف ، واتساع دائرة التمويل ، هنا قال الاستاذ الجامعى السابق والخبير بيده بما يوحى إلى الأستاذ أن يدع الأمور تمر ، قال ان الناس يجب أن تشعر بتغيير حقيقى .

وفى الأيام الخريفية الأولى بعد أن خفت حدة الحر ظهر فى الفتارين أعداد كبيرة من أطقم الكريستال الأخضر المضلع ، وسرت اشاعة قوية حول وصول غرف نوم من الكريستال الأزرق الشفاف شبيه البحر فى لحظات صفائه ، قام المسئولون عن مقاومة الحقد الكريستالى باجراء اتصالات ودية مع المستوردين لعدم الاعلان عنها تليفزيونيا ، وسينمائيا ، لأن ذلك سيستفز الناس خاصة الأعداد التى تتزايد يوما بعد يوم ولا أمل لها فى لمس كوب كريستالى ، لكنهم أصروا على ممارسة الحقوق الاعلانية التى كفلها الدستور ، والمواثيق الدولية ، وحقوق الانسان ، وبعد أخذورد تم

التوصل إلى حل يرضى جميع الأطراف ، وهـو عدم التصـدى للحقوق الإعلانية ، لكن يراعى عدم ذكر السعر الباهظ للحجرة الواحدة .

وتقدم إلى إدارة الرقابة عـلى المصنفات الانتـاجية أحـد المستثمرين يطلب الترخيص بـانتاج نـوع مقلد من الكريستـال ، وأبدت الأوسـاط المتتبعة للاتجاهات الاجتماعية ترحيبها البالغ لأن هذا سيتيح لفئات عديدة امتلاك ما يشبه الكريستال ، غير أن أحد ذوى النفوذ أبدى امتعاضـا ، اقترح الدراسة المتأنية قبل النظر فى أمر هذا الترخيص ، لأن انتاج هذا المصنع سيخلط الحقيقى بالزائف ، والأصل بـالظل ، وربمـا باع بعض التجار الذين لا ضمير لهم الكريستال المقلد على أنه حقيقى ، وهذا سيرفع معدل الجريمة ، وهنا قال الخبراء الفنيون التطبيقيون ، وأين نحن إذن ؟

أليست مهمتنا اكتشاف الحميقى من الزائف ، ثم آن قيامهم بمثـل هذه الفحوص سيخلق مجالات عمل أمام الخـريجين الـذين لا يجدون فـرصا للعمل .

فى البرلمان قال الوزيـر المختص ان الرخـاء عم والدليـل أمام كـل العيون ، يكفى البلاد فخرا أن معارض الكريستال ، فى ازدياد مستمر . .

صباح الجمعة نشرت الجريدة الرئيسية قصيدة مطلعها . .

يا كريستالية العينين تلألأى . .

فى حجرة المستشفى الأبيض الشاحب ، تـوالت الصور عـلى عقل المحتضـر ، هل سينتهى الأمـر ، يموت ، ويفـارق هـذه الـدنيـا المليئـة بالكريستال . . .

أغسطس ١٩٧٧

* * *

الغرق فى البر

قال المهندس العجوز فى اللحظة الأولى للعثور عليه ، « .. هل جرى ؟؟ » . ثم صمت..

لكن كيف تم الوصول اليه ؟ قيل ان الفضل يرجع إلى مواطن صالح يعيش فى عمارة على الطراز البلجيكى ، أما البيان الرسمى ، فأفاد بأنه تمت تحريات واسعة بناء على توجيهات مدير الأمن العام ، الذى تلقى تعليمات مدير عام قوى البحث والتجرى ، الذى صدرت اليه توجيهات مدير عام العاصمة الذى اتخذ اللازم بناء على الخطوط العريضة التى رسمها الوزير المختص بقلم أحمر ، وعندما خرج المهندس من شقته رآه الواقفون رجلا نحيلا ، نظارته اطارها معدنى ، ضم إلى صدره ثلاث اسطوانات ورقية ، وقطعة سجاد قديمة حمراء من طراز بخارى ، اقترح خبراء الاعلام النزيه قطع البرامج وبث الخبر ، لكن المسئول الاعلامى أمر بغير ذلك

فجاء ترتيب الخبر بعد المقابلات والبرقيات الواردة والصادرة ، مع أن الخلق لم يشغلهم الا الحديث عنه ، بدا لهم شعاع من أمل منذ أن توالت الأيام الثقيلة ، والكوارث العظيمة ، وبداية ذلك عندما شاع أمر اختفاء الناس أثناء عبورهم برك المياه الراكدة التى طفحت فى الشوارع والميادين ، أدرك الناس أنه من الممكن أن يغوص أحدهم ولا يطفو ، عندئذ لن تستخرج شهادة وفاة تمكن أسرة المختفى من صرف المستحقات الرسمية ، تردد الخلق فى الخروج ، قل رواد المقاهى ، وقيل أن احد الصالحين أوقف ثلاثة أفدنة يملكها لا قامة معابر من الحجارة بعد أن حوصرت البيوت بمياه راكدة ، خضراء أو رمادية ثقيلة الرائحة ، وقال العابثون ان الغرق فى البر أشد وأنكى من الغرق فى اليم ، المأساة هنا مضاعفة ، الموت والرائحة الفظيعة ، ولا يستطيع انسان تحديد الفترة الفاصلة بين وقوع أول حادثة غرق فى البر وبين انعقاد ذلك المؤتمر الموسع الذى عقد فى المقر المؤقت للبلدية ، وضم خلاصة العقول الهندسية فى البلاد ، وبعد مناقشات اضافية صدر بيان صيغ بذكاء ، واستخدم فى كتابته أحدث وسائل التورية اللغوية المستوردة خصيصا ، استعرض تاريخ شبكة المجارى حيث أنشأتها شركة فرنسية عام ١٩١٣ ، صممت لتخدم العاصمة حتى اتساعها لمليون شخص ، وحدد عمرها بخمسين سنة ، لكن ظروفا عديدة لا داعى للخوض فيها الآن حالت دون تجديدها ، ومع تكدس السكان طرأ تغير

على الشبكة بعد أن استنفدت كافة أشكال الطفح المتعارف عليها ، تحولت جدرانها الى مواد رخوة ، اختلطت فروعها ، ارتخت القشرة الأرضية ، حدثت تغيرات خفية ، وانهيارات تحتية ، ورأى المهندسون المخلصون ضرورة حقن الشبكة بكميات من الاسمنت الحديدى ، ثم الاتصال بأحد بيوت الخبرة الاجنبية ، وطلب بيت الخبرة المحترم تصميمات الشبكة . . وبالبحث والتحرى اتضح أنه لا توجد تصميمات فى أى ادارة مختصة ، تم تشكيل وفد موسع للسفر الى باريس للحصول على التصميمات من الشركة التى قامت بالتنفيذ ، لم تدع كل التفاصيل ، غير أن قدرات الناس على التنبؤ تنمو فى مثل هذه الظروف ، هكذا أيقن الاهالى أنهم يعيشون فوق أرض رخوة ، وعندما وقع أول غرق جماعى سرى الرعب فى الافئدة ، اذ غاصت عربة أوتوبيس مفصلية صناعة مجرية فى بركة مياه راكدة منذ شهور ، أقسم شهود العيان أن الأرض تحركت كما لو كانت تتنهد ثم ابتلعت العربة ، وفى الايام التالية غرقت عدة دراجات براكبيها ، وسيارة نصف نقل ، وأحد أعضاء جمعية أنصار الأورج ، وأصدر اتحاد الطيارين الدولى بيانا أعرب فيه عن قلقه لظهور برك مياه بالقرب من ممرات الهبوط ، علقت الصحف المحلية وقالت ان الاتحاد خاضع لضغوط بعض الدول ذات الاتجاه السياسى المعين ، فى الشوارع علت الوجوه صفرة الرعب ،

كما قلت ساعات النوم وكثر انهيار البيوت فى الحى القديم ، وحاول البعض تحديد مسئولية ما جرى ، قال فريق انه العهد البائد ، عندئذ مزق بعض الموظفين صور العهد البائد ، ربما نقل عنهم ذلك فتتحسن صورتهم لدى الجهات المعنية ، وتساءل الناس عن الوفد الذى سافر إلى باريس ، بعد يومين نشرت الصحف برقية من رئيس الوفد يعلن فيها تأييده التام ، ويعتذر بازدحام الطائرات المتجهة إلى البلاد ، عندئذ أرسل مندوب العلاقات العامة لشركة الطيران تكذيبا ، قال فيه ان حركة السفر انخفضت ، واختفى السياح بسبب ما أشيع عن اختفاء الناس فى مياه البالوعات ، غير أن الانظار تعلقت بالوفد الذى عاد وأعلن رئيسه فى المطار اختفاء الشركة المصممة للشبكة ، لكن الوفد بذل جهودا مضنية فى غير أوقات العمل الرسمية مما يجعله مستحقا لأجور اضافية ، حتى أمكن التوصل إلى حقيقة هامة وهى أن أحد المهندسين الذين شاركوا فى بناء الشبكة لا زال على قيد الحياة ، وأين ؟ هنا فى العاصمة ، بدأ البحث ، وتزايد السفر إلى الخارج ، وأغلقت دور السينما والمسرح ، وأبطلت أضواء النيون ، واختفى جزء من السور القديم فى المياه العطنة فتشاءم الناس وقالوا ليقعن حادث عظيم ، غير أن العثور على المهندس جذب كل انتباه ، لهجت الألسن بالبشرى ، وتم طرح كميات اضافية من الاشاعات المتقنة لتهدئة الخواطر ، سيتم الليلة معرفة تصميم الشبكة ، ستستخدم المياه

العطنة كساد ، ستنمو الاشجار وتتفتح الأزهار وتغرد الأطيار ويأكل الفقراء اللحم و « الممبار » .

تم نقل المهندس فى سيارة خاصة إلى استراحة معدة فوق الهضبة الجنوبية ، أعد نظام دقيق للتكييف ، نقل أحدث جهاز لانعاش القلب ، وعدة خيام أكسجين ، كما وقع عدد من الأدباء والمفكرين يناشدون فيها الدكتور مجدى يعقوب بالحضور للاشراف على أثمن رجل الآن ، تم استدعاء أطباء عالميين من كل التخصصات ، ركبت أجهزة تسجيل حساسة للغاية لالتقاط أى عبارة ، أو همهمة ، أو لفظ يفوه به المهندس ، قيل انه لا يتكلم الا فى الأوقات التى تأتى فيها الشغالة ، كما أنه يحدث نفسه أحيانا ، لكن متى . . لا أحد يدرى .

أعد كمين محكم للشغالة ثم نقلت الى الاستراحة ، استجوبت بدقة ، أمكن معرفة معلومات قيمة ، منها أنواع الطعام التى اعتاد أن يأكلها ، الزبادى ، قطع الخيار المخلل ، عسل النحل .

والترمس ، كذلك حبه الشديد للنظام ، وجلوسه أمام النافذة لمدة ساعة أو ساعتين ، واستماعه إلى نشرة الاخبار من اذاعة لندن فقط ، كما أنه يكره طلاء الدوكو ، فى تلك الليلة جاءت الاخبار الى الاستراحة بغرق الحديقة الوحيدة المتبقية فى العاصمة ، اختفت الحشائش والزهور ،

والمقاعد الحجرية ، والطرقات الضيقة المرصوفة بالزلط الملون ، كما تشققت مبانى المصالح الحكومية ، وظهر شرخ يتسع لمرور الرجل البالغ فى واجهة مبنى السنترال الفرعى ، ومن ادارة حفظ الوثائق القديمة انبثقت نافورة مياه سوداء عطنة تشم رائحتها على بعد كبير ، غرقت كل الملفات ، وقيل ان البلاد فقدت بذلك جزءا من ذاكرتها ، وظهرت مساحات واسعة من المياه ، وبلغ من غلظ الرائحة أن العيون كادت تراها فى الهواء ، وأكد الذين اعتادوا السهر أنهم شاهدوا فوق البيوت غلالات خضراء فى الصباح الباكر ، وأعلنت الولايات المتحدة عن اتجاه حاملة الطائرات انتر برايز إلى جهة غير معلومة ، وفى المساء أعلن المتحدث الرسمى أن المهندس تحدث ، فقال للمرة الثانية ، « هل جرى ما جرى ؟ » . على الفور دخل كبير اخصائين الطب النفسى فى البلاد الحارة ، والحائز على الدكتوراه العلمية من جامعة أدنبرة وزميل كلية الطب النفسى بها رولد تاون ، وقيمة الكشف العادى خمسة جنيهات وعشرة كشف مستعجل ، وعشرون فى البيت ، وثلاثون فى الضواحى والاستقبالات بمواعيد سابقة يتفق عليها مع التمورجى ، وبعد حوار قصير ، ومدخل تمهيدى لابد منه ، وتنويعات على ايقاع واحد ، هز المهندس رأسه ، وقال على مهل ، انه من الطبيعى حدوث الغرق لأن آخر الزمان اقترب ، أبدى المراقبون ارتياحا ، يبدو حديث العجوز مرتبا ، والفاظه سليمة .

سكت المهندس لحظات ، قال انه من الغريب أن يبدأ الغرق بسبب الشبكة التى هى تحفة فى تصميمها ، شارك فى كل الخطوات ، شهد له الأجانب بالكفاءة ، جاء اليه كبير مهندسى الشركة فى موقع العمل ، كان يرتدى قبعة عريضة لأن الأجانب لا يحتملون شمس مصر ، صحيح أنهم تغزلوا فيها ، لكن تلك شمس الشتاء ، وليست شمس الصيف ، ولكن ، لماذا يحب الانسان الجلوس فى الشمس شتاء ويكره ذلك صيفا ؟

توقف عن الحديث ، قال كبير الاخصائيين مبتسما بتودد ؟

سؤ ال قيم بالفعل .

صاح المهندس مباغتا :

لكن كيف يحدث هذا وأرصفة الترام لا تزال أقل ارتفاعا من أرصفة القطار ، كيف يمكن ضبط ارتفاعات الأبواب بحيث تجيىء متوازية مع الأرصفة ؟ ولحساب من يحدث هذه ؟

فى تلك اللحظة دق التليفون فى غرفة المراقبة المركزية ، وأعلن المتكلم أن الحيوانات فى السيرك تحاول منذ العصر الافلات ، الأسد روميو نطح رأسه فى القضبان محاولا الانتحار ، أطلقت عليه رصاصات مخدرة ، القرود مدلاة الألسن ، وعيونها متسعة فزعا وفى أماكن عديدة من العاصمة لم تهدأ العصافير ، وعلى الرغم من نزول الليل فانها لم تهجع بعد إلى أعالى

البيوت وقمم الأشجار وأعمدة التليفونات ، كما أن أسراب الحمام التى انطلقت من الأبراج ترفض العودة على الرغم من تلويح أصحابها برايات مختلفة الألوان ، وسقط عديد من اليمام مجهدا ينتفض فوق الأرض لكن الأسراب الباقية لم ترَسُ ولم تأو .

قال المهندس :

لماذا اخترع الانسان أنواعا من الجبن ، جبن قريش وجبن روكفور وجبن رومى ، ما هذه الفوضى ؟ وهذا الورق المفضض كم يستهلك الانسان منه يوميا فى تغليف السجائر ؟ بدا المهندس صارما ، ابتلع كبير الاخصائيين لعابه بصعوبة ، استدعى إلى ذهنه ما قرأه فى المراجع الطبية والقواميس التى يعلن عنها يوميا بعد نشرة التاسعة عندما صمت المهندس لحظة اضطر إلى توجيه سؤال مباشر مخالفا كل قواعد الاستجواب .

لكن ماذا عن التصميمات الخاصة بالشبكة؟؟

جفلت عينا المهندس بأشواق مفاجئة .

شبكة ؟ أى شبكة ؟ ماذا يعرف هذا الجيل عن الشبكة ؟ من يدرى بالمعاناة التى بذلت من أجل الشبكة ؟؟

مط شفتيه ، ثم رشف جرعات متتالية من الماء بصوت مرتفع جعل الاخصائى يقشعر تقززا ، غير أنه غالب ضيقه وسأل . .

من أين بدأ تم الحفر ؟

من الميدان الفرعى بالحى القديم ، استمر الحفر أسبوعا ، وكان الناس يجيئون ليتفرجوا على الآلات الحديثة ، فى البداية حفرت بئر عميقة ، ثم قناة عريضة فى الاتجاه الشمالى الشرقى تم الحفر بدقة ، وقف المهندس الفرنسى إلى جوارى ، قال لى . . أنتم أذكياء ، لكننى تساءلت عن الشخص الذى اخترع جوازات السفر ، وحقدت عليه ، لكنها أشارت إلى ، كان شعرها قصيرا ، وهل يفهم الناس الآن معنى الشعر القصير فى زماننا ، لم أدر جنسيتها لم أعرف كلمة واحدة من لغتها ، لكن عيوننا اتصلت وتم كل شىء بسهولة لم تتكرر خلال سنوات عمرى التالية ، جرى ذلك خلف كومة حبال كبيرة وضخمة ، لوحت لى ولا أدرى أين هى الآن ولست أدرى أين رست أول سفينة فى العالم ، لكن صاحبى أخرج ورقة معدنية بها عشرة أقراص ، قلت مبتسما ، أهذه مقويات ؟ قال بعد أن شربنا وأكلنا . . أكلنا ماذا ؟ مع كل كأس ويسكى احضروا عشرين طبقا من المخللات وأصابع الكفتة وسمك الباساريا والسردين وفول ، هذا كله مقابل قرشين فقط ونصف قرش للجرسون يجعله ينحنى لك حتى وصولك إلى البيت . .

. . فى التاسعة وعشرة دقائق رصدت أجهزة الشرطة النهرية ، والصيادون الفقراء الذين ينامون فى القوارب طفو أعداد كثيفة من السمك

الميت ، أسماك مختلفة الأحجام غطت سطح النهر ، وقيل ان الشبكة ربما رسبت فى النهر مياهها العكرة ، وحُذر المسئولون بالمرفق الادارى لمياه الشرب لن يجدوا قطرة يشربونها وذلك لعجز كافة وسائل الترويق والترسيب المتاحة ، وفى تلك الليلة لحظ تساقط الأوراق الخضراء لما تبقى من أشجار ، ونضح الماء من جذوع عتيقة تجاوز عمر بعضها اربعمائة عام ، وفوق الحى القديم علت سحابة من غبار عندما انهار صف كامل من البيوت ، وتردد على الشفه سؤال محير ، إلى أين نذهب ؟

من أنت ؟

قفز بعض الجالسين من الغيظ فى غرفة الاستماع ، صاح المشرف العام على عملية الاستجواب .. هل هناك طريقة لتخديره وانتزاع ما نريده ، لكن كبير الاطباء قال انه تجاوز التسعين ولا يحتمل أى نوع من التخدير .

قال المهندس متمهلا ..

كانت الخضرة فى كل مكان ، وللأعياد فرحة وللحياة مذاق حتى فى ساعات الضيق ، لماذا تهاجمون العهد البائد ، أريد أن أسمع بيانا ينهى حملات الهجوم ..

أومأ كبير الاخصائيين بعد أن رأى فرصة متاحة للحوار .

ستسمع البيان .. لكن ، هل تذكر إلى أين امتد النفق الثانى ؟

أجاب المهندس :

طبعا ، وهل هذا شيء ينسى ؟

فى غرفة الانصات بدت حيرة أى ماضى يقصده ؟ أهو القريب أم البعيد ؟ أهو الماضى التام أو الماضى المستمر ؟ ، فى فترة هوجم الماضى الوسيط وامتدح الماضى البعيد ، وفى مرحلة أخرى هوجم الماضى البعيد وأعيد الاعتبار إلى الماضى القريب ، قال المشرف العام انه سيبلغ المسئولين فى وزارة الدعاية وليتصرفوا ، لم يرد التليفون ، لم يجب أحد ، اعترض المسئول الأمنى ، قال ان ما يطلبه المهندس فيه رائحة لا تخفى وخطوط مضادة للسياسة التى أقرها الحزب الحاكم ، انه يشك فى جنون هذا المهندس ويطلب الكشف عليه بأشعة الليزر ، صاح كبير الاطباء طالبا من المسئول الأمنى التزام حدوده وعدم الخوض فى أى أمر طبى ، أكد المشرف العام أنه لا يعرف الا مسئولية واحدة وهى الاطلاع على تصميم الشبكة وكل ما سيجعل المهندس يتذكر التصميم لا بد من القيام به .

فى هذه اللحظة أعلن مسئول الاتصالات السلكية واللاسلكية أن مياه الطفح أغرقت استوديوهات الاذاعة ، وأفسدت الأجهزة الالكترونية ، وأغرقت استوديو التليفزيون رقم ٩ المخصص لتسجيل

الحلقات التمثيلية السباعية كما أن الشروخ دبت فى المبنى وتسمع منه على فترات متباعدة طقطقة وكركبة ، تلقت الصحف تعليمات بإصدار نشرة كل نصف ساعة ، وذلك حتى يتم تشغيل محطة الاذاعة الاحتياطية ، وفى مبنى الصلب الموحد الذى لا تخترقه المياه والمعالج بـطلاء « كورامـات » الذى يباع لدى الصيدليات الكبرى وفى فروع البقالة الكبرى والشركات المساهمة « كورامات » الطلاء العجيب الذى عاد أخيرا إلى الأسواق بعد طول احتجاب ، ننصحكم باستعمال كورامات ، فى المبنى المعالج بهذا الطلاء اجتمع خبراء الاعلام وراحوا يبحثون كيفية تغيير الصورة .

اجتمـع الخبراء حـول نموذج مجسم من الجبس للواقـع ، ثم بـدأوا مقترحات القلب والتغيير ، كما تم فرز الاشاعات فى آلة خاصة لا ختيار الصالح منها ، وفى اليوم التالى تم ابراز دقائق حياة المهندس ، كما كتب رئيس التحـرير فصـلا عن نبوغـه المبكر ، وكتب رئيس اتحـاد الكتـاب المعتمدين رسميا والحائزين على ضمانة لمدة عشرة سنوات قابلة للتجديد دراسة عن حبه للجلوس فى الصفوف الخلفية أثناء دراسته الابتـدائية ، وأعلن عن أخبار هامة ستذاع خلال ساعات سويسرية الصنع .

إلى جانب ذلك تم نشر أسماء بعض الأماكن التى غمرتها مياه الطفح ، ولم يأت أحد على ذكر غرق مستشفى الولادة الرئيسى ، وضياع صيحات .

عشرات الأطفال الراقدين فى أسرتهم المغطاة بستائر وردية فى الدرجة الأولى ، والملتصقين بصدور أمهاتهم فى الطابق الأرضى بالدرجة الثالثة ، وقيل ان الماء اندفع على شكل نافورة هائلة أسفر الضغط الناتج عنها عن تحطيم زجاج النوافذ فى الثوانى الأولى ثم غمر الممرات وغرف الولادة والممرضات والأطباءالرئيسيين والآخرين المناوبين ، وعندما دنا الوقت من الأصيل سأل المهندس :

عندما تبدأ المشى ، هل تخطو بقدمك اليمنى أو اليسرى ؟

ابتسم كبير الاخصائيين بعصبية ، أطرق كأنه ووجه بسؤال عويص ، لكنه وجد نفسه يتساءل ، بأى قدم يخطو ؟ ثم قام ومشى فى الحجرة بينما حملق المهندس الى السقف ، فى هذه الاثناء أقلعت من المطار آخر طائرة قبل اغلاقه بعد أن تصدعت ممراته ، داخل الطائرة تناول أصحاب الأموال الخارجية قطعة الحلوى التى تمنع دوار الجو ، وابتسموا للمضيفة التى راحت تشرح كيفية استعمال حزام النجاة وكمامة الاكسجين عند الطيران على ارتفاعات عالية لقد انتابتهم راحة الآن فأوضاعهم مرتبة فى عواصم الدنيا ، أما أصحاب الأموال الداخلية فراحوا يبحثون عن قطع الأرض المرتفعة والتى أصبحت الآن ممتازة بعد أن كانت لا تساوى شيئاً منذ أسبوع واحد ويمتلكها البشر بوضع اليد ، فى المساء تم طرح كميات اضافية من الاشاعات المعدة جيدا والمحفوظة ، مضمون احداها أنه تم التقاط صور

بواسطة قمر صناعى أمريكى يتم دورة حول الكرة الأرضية كل نصف ساعة للشبكة ، واتضح منها أن هناك انفاق هائلة تحت الأرض تشبه المدينة الضخمة ، وثبت توفر كميات الاكسجين ، لهذا فان الغوص فى المجارى لا يعنى الموت ، ثمة حياة أخرى تنتظر من يغرقون ، المهم هو التكيف معها ، وتجرى حاليا محاولات جادة للاتصال بالمواطنين الذين ذهبوا إلى الشبكة ، وفى اشاعة أخرى تمّ تداولها بشدة أنه تم تحقيق الاتصال فعلا وان الاجابة جاءت ايجابية .

فى هذه اللحظة تخلى كبير الاخصائيين عن كل وسائله العلمية وأساليب توجيه الحديث ، ركع أمام المهندس ، قال :

سأفصل من عملى لو أنك لم تخبرنى بتصميم الشبكة ، سيشرد اولادى . .

ثم تصنع الاغماء ليستدر الشفقة .

قال المهندس انه يجب على كل طبيب القاء التحية عند دخوله من باب العيادة على مرضاه ، والغاء الأسوار المحيطة بمدارس البنات ، وتقشير الخيار قبل أكله ، واثبات البكارة بشهادة رسمية ، وتعميم الكشرى ، والاعلان العالمى عن حقوق الأطفال فى رؤ ية الحيوانات حرة طليقة ،

والاكثار من القوارب الشراعية ، والتصـدى بحزم لأشجـار الكافـور ، والضرب بشدة على غصون الصفصاف . .

نزل غم فوق المدينة ، وخيمت روائح كريهة سرت أقوال خبيثة بأنها مشبعة السماد الطبيعى وأن الفراغ سينبت أعشـابا وسيختفى التنفس ، لكن تم طرح اشاعات مضادة ، الى الاستـراحة وصـل أحد المسئـولين بالأجهزة الشرعية ، قال ان ثمة أخباراً مؤكدة حول الاتصال بمن ابتلعتهم الشبكة ، وان أحد الهواة التقط رسالة صوتية من تحت لا يشكو صاحبها الا من الظلام الكثيف ، لكنه يقول ان كل شيء على ما يرام ويبلغ سلامه إلى الأهل والأحباب ويعلن تأييده التام . . . .

نوفمبر ــ ١٩٧٧